

أرض المعجزات

رحلة في جزيرة العرب

الدكتورة بنت الشاطئ



0263871

مكتبة
Bibliotheca Alexandrina

6

دار المعارف

أرض المبعثرات، ولقاء مع التاريخ

أرضُ المعجزات ولقاء مع التاريخ

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

أستاذة الدراسات القرآنية بجامعة القرويين

(المغرب)

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دعاء :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمُحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

[سورة إبراهيم]

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

صدق الله العظيم

[سورة البقرة]

الإهداء

هذه طبعة جديدة من أرض المعجزات ، أكتبها بعد عشرين سنة من رحلتي الأولى إليها ، فتكشف لي الرؤية البعيدة عن آفاق خفيت عليّ وأنا في أخذة اللقاء الأول بالأرض المباركة التي شاء الله لها أن تكتب تاريخاً جديداً للعالم ، وأن تتجلى فيها من آياته تعالى :

● آية البيان ، في هذه اللغة العربية التي نشأت في رحاب البادية من ليل الجاهلية ، لتفرض حيويتها على الزمن ، وتشرفُ بتزول القرآن الكريم بها ، فتغدو لسان أمتنا المعبر عن جوهر إنسانيتها الناطقة .

● وآية الفجر الصادق ، الذي بزغ نوره في ليلة القدر المباركة ، حين خرج المصطفى ﷺ من « غار حراء » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن : معجزة نبوة ، وكتاب شريعة ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، والنور الذي حدا مسرى البشرية الأمية من ليل الجاهلية ، وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال .

● ثم كانت آية العلم ، كشفت عن السر الذي أجتته الصحراء آماداً وحقباً ، وبثت الحياة في الوادي الأجرد غير ذي الزرع ، فتدفق عطاء كنوز الصحراء ، منطلقاً إلى شتى الآفاق ، ومشاركاً في موازين القوى لعالم اليوم . . .
هذه هي أرض المعجزات .

أسترجع فيها ذكريات رحلتي الأولى إليها من قبل عشرين عاماً ، وأضيف إليها عطاء رحلة لي جديدة ، في موسم الحج من عامنا هذا ، كانت لقاء مع التاريخ العريق في مهد النبوة وأرض المبعث ، اتصل فيه الحاضر المشهود بالماضي الحيّ ، في رؤيا ملهمة رقى فيها الحس والوجدان ، وصفا القلب والضمير . .

فإلى هذه الأرض التي أعطينا لغتها لساناً معبراً عن جوهر إنسانيتنا الناطقة .
وإلى بقاعها المباركة التي كانت لنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام مهداً ومبعثاً ،
والتي تظل أبد الدهر قبلة أمتنا ومثابة حَجَّها ومَهوى أفئدتها ،
أُهدى هذا الكتاب ، تحية اعتزاز وولاء . .

عائشة عبد الرحمن

مصر الجديدة

١٣٩٢ : ١٩٧٢

دليل :

- ليل الجزيرة
« خلق الإنسان . علمه البيان »
- الفجر الصادق ،
« هُدَى للناس وبيِّنَاتٍ من الهدى والفرقان »
- وراء الأسوار
« علَّم الإنسانَ ما لم يعلم »
- لقاء مع التاريخ
« وأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .

(١)

رحلة إلى جزيرة العرب

١٣٧٠ هـ : ١٩٥١ م

- ليل الجزيرة
- الفجر الصادق
- وراء الأسوار
- صور من الجزيرة
- المغتربات
- جارة النبي
- هاجر
- آمنة

في عطلة منتصف العام الجامعي ١٩٥١ م ١٣٧٠ هـ دعانا الشوق إلى أرض المبعث ، فأجمعنا أمرنا على أن نسعى إليها معتمرين زائرين .
 وحرص كثير من الأساتذة والطلاب على الاشتراك في الرحلة ، لكن المبلغ الذي حُدد لها - خمسة وأربعين جنيهاً - حال دون كثير منهم ، فلم يبق منا غير عشرة من كليات : الآداب والطب والزراعة والتجارة ، بجامعة القاهرة ، فيهم ثلاثة من الأساتذة .
 وُضع برنامج الرحلة في حدود ما تسمح به ميزانيتها المتواضعة ، فلم نطمع في أكثر من قضاء العمرة وزيارة مثنى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام .
 وكان بودنا - نحن الذين درسنا علوم العربية والإسلام - لو اتسع المجال فامتدت الرحلة إلى ربوع الجزيرة التي عشنا العمر كله ندرس لغتها ونشدو بأشعارها ونتمثل بواديها ودروبها ومنازلها ، ونصحب شعراءها ورُجَّازها وصعاليكها ، من وراء القرون ذات العدد . . .
 لكن قصور وسائلنا وزادنا ، أبقى هذه الأمنية بعيدة المنال . . . حتى شاء الله فزار مصرَ « صاحب السمو الأمير فيصل » وتفضَّل فوضع الرحلة تحت رعايته الكريمة ، بعد أن استقبل وفدنا منا ، أستاذنا أمين الخولي ، والدكتور محمد عبد السلام العيادي ، والدكتور محمود المنجوري .

وأوفد سموه ، السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، حين بدأنا منه رحلتنا صبح يوم الأحد ، الرابع من شهر فبراير .
 حملتنا طائرة سعودية إلى جدة لنجد في استقبالنا فوجاً من كرام الرسميين والعلماء والأدباء ، ولنعلم أننا ضيوف جلالة عاهل الجزيرة « الملك عبد العزيز آل سعود » - طيب الله ثراه -

في أصيل يوم وصولنا ، سعينا إلى مكة محرمين ، فقضينا العمرة وصلينا العشاء في المسجد الحرام ، ثم نزلنا في دار الضيافة حيث أمضينا أمسية حافلة مع المكيين الكرام ، وفي الصبح زرنا معالم أم القرى وطفنا بمشاهدها . ثم عدنا إلى جدة حيث دعينا إلى الغداء بالقصر الملكي في ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » .
 وطاب لنا مجلسه ، وطاب معه الحوار الخصب الحَيِّ في قضايا الشعر العربي والفكر الإسلامي . وذكرنا به شعراءنا الأمراء : من امرئ القيس وعُلية بنت المهدي وعبد الله بن

المعتر وأنى فراس الحمدانى ، إلى ولادة بنت المستكفى والمعتمد بن عباد . . هؤلاء الذين أثروا تراثنا الأدبى بعباء شاعريتهم الملهمة ورؤى وجدانهم المرفه ، ولطفوا من وطأة إحساسنا بمهانة القولة الشائعة الذائعة : « الشعر تجارة العرب » .

* * *

قال سمو الأمير يودّعنا :
« أنتم فى داركم وبين أهليكم . لانضع لكم برنامج الرحلة . بل حسبكم أن تختاروا لها ماشتم ، وعلينا التنفيذ » .
من ثم ، رفعت الحدود التى كانت تقيد خطانا فلا تأذن لنا بالتحرك فيما يجاوز منطقة : جدة ، والحرمين . .

وفى دار « السيد الشيخ محمد سرور الصبان » - رحمه الله - رسمنا برنامج رحلتنا فى حرية وغبطة : نظير إلى الظهران ، ومنها نوغل فى نجد والأحساء ، ونبلغ القطيف والبحرين ، ثم نتجه إلى الرياض فنحى جلاله الملك العاهل ، ومن هناك نأخذ طريقنا الجوى إلى المدينة المنورة لنسعد بزيارة حبيينا المصطفى عليه الصلاة والسلام . .

* * *

رحلتنا إلى الظهران كانت حافلة مثيرة . وفيها أقمنا سبعة أيام نتجول فى المنطقة ونسمع قصة الزيت .

وقضينا يوماً فى جولة بحرية بالخليج العربى ، بقارب بخارى أعدته لنا إمارة الدمام ، وزودته بطيب الطعام والشراب ، ووسائل الراحة .

ويوماً فى « القطيف » على ساحل الخليج ، مع صحب كرام من الأعيان والشعراء . وبقى من أسبوعنا هناك خمسة أيام لزيارة دور التعليم ، وآبار الزيت ومعامله ، وميناء الدمام . منتقلين خلال ذلك من غداء فى بستان السيد الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، إلى عشاء فى قصر الإمارة ، ضيوفاً على سمو الأمير الشيخ عبد المحسن بن جلوى ، إلى حفلات سمر واستقبال فى دور كرام القوم بالدمام والظهران والخبر .

وسعدت بقاء السيدة الكريمة حرم سمو الأمير عبد المحسن التى استقبلتني لترحب فى شخصى بسيدات مصر أم الدنيا . وقد شدتني إليها بلطفها وإيناسها ، وجاذبية أصالتها البدوية ، وملاحظتها النقية التى لم تشوهها الأصباغ والألوان ، وبساطتها الفطرية التى لم يفسدها زيف وتكلف .

وفي الرياض كان لقاءنا بالعاقل الكبير ، جلالة الملك عبد العزيز . وفي مجلسه بالمرتع ، لم يكن لجلالته حديث إلا عن محنة الأمة بعار إسرائيل ، وقد مدَّ بصره إلى الأفق الشمالي يستوعب أبعاد النكبة في رؤية ثاقبة . ويحس بحدس فراسته المهمّة ، نذر الإعصار العتيّ يوشك أن يوغل في صميم وجودنا وينتهك أقدس حرماننا . .

وتهدج صوت العاقل الشيخ ، إذ يتساءل في حيرة وأسَى :
 متى تحتشد الأمة للجهاد ، عسى أن يبذل حياته وأبناءه قدية لشرف أمتنا ؟
 وأراه لم يملك دمه ، وهو يتمنى على الله تعالى ، لو أنه أعفاه بالموت من شهود الكارثة . ورحمه من وطأة المعاناة الباهظة لإصر التخاذل وذل العار .
 ودعنا جلالة العاقل - رحمه الله - وفي النفس همٌّ وشجن ، لم يلف منها ما حظينا به من كرم الوفاة وأنس اللقاء ، كان لي معها أن تطف جلالته فدعاني « أميرة الصحراء » . .

حتى شددنا الرحال إلى المدينة المنورة ، فما حومت طائرنا فوق أرضها الطيبة ، حتى اشربت لها أرواحنا الظائمة وقلوبنا المشتاقة ، وانجابت عن أفقنا الظلال والغيوم ونحن نستقبل مئوى الحبيب ، ونطوف بالربوع العاطرة بأنفاسه ، ونسير حيث سارت خطاه . .

* * *

وعدنا إلى مصر نحمل أجمل ذكرى لأطيب رحلة وأكرم ضيافة .
 ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة تترامى لي على البعد والقرب ، فتغريني بأن أحدث قومي عن أرض المعجزات التي يتمون إليها عقيدة ولساناً ، ويستقبلون المسجد الحرام فيها ، حيثما كانوا . .
 وسلام عليها : داراً وأهلاً . .

ليل الجزيرة وآية البيان

أَوْقَدُ فَإِنِ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرٌّ
وَالرَّيْحُ يَاغْلَامُ رِيحٌ صِرٌّ
عَلَّ يَرَى نَارَكَ مِنْ يَمُرُّ
إِنِ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

حاتم الطائي

مَرَّتْ عَلَى صَحَارِهَا الْحِقَبُ وَالدهور وهي قاحلة مجدبة ، رهية مرهوبة . يحوم حولها الخيال ثم يرتد عنها فزعاً مذعوراً ، لا يكاد يميز بين صفيح الرياح فيها وعواء الوحوش وعزيف الجان .

وتترامى الأشباح للسايرين فيها بليلى ، فيجسمها الوهم لا يكاد يفرق في الدجى بين كئيب الرمال وقطع الظلام ، وتلك الأشباح التي تسرح طليقة في ليل الفلاة . وربما تمثلت لهم الجن وقد تلبست شخصاً آدمية في شياطين البشر ، أوفى وحوش الفلاة :

وإذ غاب عنهم تفسير ما يلقون في ليل الصحراء من غريب الظواهر ومباغطات الأخطار ، ردوها إلى هذه الكائنات الخفية التي ترصد لهم بين كئيب الظلمة وسود الصخور . وقد تخرج لهم من أحشاء الأرض في صورة ثعبان أرقش أو حية رقطاء أو أرنب وحشى .

وامتلأت الجزيرة بأساطير تحكى ما يلقاه الضاريون في نجد والدهماء والربع الخالى ، من أفاعيل الجن والأعيب الغيلان ، فزادت من رهبة القفر الموحش ، يتقيه السارون إلا أن تدفعهم ضرورات العيش إلى ركوب مخاطره وأهواله . حيث يتلمسون مواضع أقدامهم على حذر ، وهم يستعيذون من شر ، فيما يقول راجزهم :

قد استعدنا بعظيم الوادى
من شرّ ما فيه من العوادى

وكان من راكبي القفر شعراء ، حفظ ديوان الشعر الجاهلى لبعضهم مغامرات ومواقف مع الجن ، من اختراع الخيال أو من أضغاث الأحلام وتجسيم الوهم ، كقول شاعر منهم يصف جنّاً نزلوا به حين أوقد ناره في ليل القفر :

أتوا نارى فقلتُ : منون ؟ قالوا سراة الجن ، قلتُ عموا ظلّاما
وقلتُ : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسدُ الإنسَ الطعاما
لقد فضّلتمُ بالأكل عنا ولكنّ ذلك يُعقِبُكم سقاما

وقال الشاعر الصعلوك « تأبط شراً »^(١) يفاخر بمغامراته مع الجن :
 أنا الذي نكح الغيلان في بلدٍ ما طَلَّ فيه سِمَاكِيٌّ ولا جادا
 ومنهم من زعم أنه اتخذ له في القفر مطايا من الجن ، مشخصة في أرناب وحشية :
 وكلُّ المطايا قد ركبنا فلم نجد ألدَّ وأشهى من ركوب الأرناب
 وكذلك زعموا أن الجن ناحت على قبر « حاتم الطائي »^(٢) « لِمَا كان في حياته يوقد من
 نار القَرَى في ليل الفلاة ، فيؤنس الضاربين في مجاهلها ويجدون لديها ملاذاً وقرى ،
 وحفظوا له قوله لغلامه :

أَوْقَدَ فَإِنِ اللَّيْلِ لَيْلٌ قَرٌ
 وَالرَّيْحُ يَا غَلَامُ رَيْحٌ صِرٌ
 عَلٌّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ
 إِنْ جَلَبْتُ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

فَيْرَوِي عن « أبي عبيدة ، معمر بن المثنى »^(٣) « عن رجل من بني طيئ ، قال :
 [رأيت قبر حاتم الطائي بِبَقَّةَ ، - موضع بديار بني طيئ - وإذا قُدُورٌ عظيمة من
 أحجار مُكفَّات ناحية القبر ، وهي التي كان حاتم يطعم فيها الناس . وعن يمين قبره أربع
 جَوَارٍ من حجارة ، وعن يساره كذلك . ولهن شعورٌ منشورة كالناتحات عليه ، لم يُرِ ومثلُ
 بياض أجسامهن وجمال وجوههن ؛ مثلتهن الجنُّ على قبره : فإذا هدأت العيون ارتفعت
 أصوات الجن بالتياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يَسْكُنُ . .
 قال : وربما مرَّ المارُّ فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً] .

وليس هذا بعجيب من تصورات الخيال وتهاويل الرؤى ، وقد تسمع مثله في مناطق من
 الغرب الحديث^(٤) وقد راجت هذه الحكايات وأمثالها في أنحاء الجزيرة ، فلم ينبج من التأثر

(١) ثابت بن حابر ، انظره في (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (المفضليات) للضبي

(٢) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي ، الشاعر الجواد المشهور في الجاهلية بالكرم والسخاء انظره في : (الشعر

والشعراء) .

(٣) من أئمة علماء العربية في القرن الثاني للهجرة انظره في (نزهة الألبا) و (أخبار النحويين) .

(٤) أذكر أنني شهدت في جبال النمسا العليا ، صحرة من عجيب تحت الطبيعة ، لا يشك الراي من بعيد أنها جسم
 امرأة نائمة . وسمعت القوم هناك يحكون لي ، في ليلة ساهرة لشهود القمر الصناعي ، أسطورة حب نسجها الخيال لهذه
 (الأميرة النائمة)

بها شاعر شيخ كالنابغة الذبياني ، وهو يعيش في بلاط النعمان بن المنذر بإمارة الحيرة . كالذي قال في شكواه من ذوى الضغن عليه ، في قصيدته الرائية التي ذكر فيها قصة الحية « ذات الصفا » وما لقيت من عذر خليلي لها من الإنس^(١) :

* * *

في ذاكرة الزمن ، كانت تعيش مرويات عن حضارات الأقوم وممالك من العرب البائدة ، قص علينا القرآن الكريم من خبرهم ما هو موضع عبرة ، مثل :

● عاد : « إرم ذات العماد . التي لم يُخلق مثلها في البلاد . »
كان منزلهم بالأحقاف ، بعث الله فيهم أخاهم هوداً رسولاً ونذيراً ، فكذبوه وعصوا واستكبروا في الأرض بغير الحق . فأرسل عليهم الريح العقيم « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » .

● « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » دعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله فكذبوه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يَغْتُوا فيها^(٢) .

● وسبأ الذين كان لهم في مسكنهم آية : « جنتان عن يمين وشمال » وقد ازدهرت الحضارة في مملكة سبأ بالجنوب ، حتى غرتهم الدنيا وأفسدهم البطر والترف ، واجتاحهم سيل العرم وبتلوا بجنتيهم « جنتين ذواتي أكل خَمَطٍ وأثلٍ وشيء من سبذرٍ قليل »^(٣) . ونزلت قبائل في نجران والحواف اليمنى وحضر موت وساحل عمان . ونزحت أخرى ، من عرب الجنوب القحطانية ، في هجرات جماعية قديمة فاستقرت في منازل عمّرتها ، ومنها ما خالط قبائل من عرب الشمال كقبيلة كندة التي ظهرت على بنى أسد ، وجرهم التي نزلت بمكة وأصهر إليها إسماعيل ، جد العرب العدنانية .

ونزل بنو قيلة ، ولد عمرو بن عامر : آخر ملوك سبأ ، في شمال الحجاز فعمروا يثرب

(١) مطلع القصيدة :

ألا أبلغنا ذبيان عنى رسالة فقد أصبحت عن منج الحق جائره
انظرها في (ديوانه) وفي (العقد الثمين) .

(٢) انظر الآيات في عاد و ثمود ، في سور :

الفجر ، هود ، الأحقاف ، القمر ، الحاقة ، النمل ، الداريات ، الأعراف ، فصلت ، إبراهيم ، النجم ، الحج .
وما بين الأقواس هنا ، هو من نص كلمات الذكر الحكيم .

(٣) انظر الآيات في سورتي (سبأ ، والنمل) .

وهم الأوس والخزرج^(١) .
 ونزل إخوتهم « بنو جفنة بن غسان » بأرض الشام ، فأسسوا بها إمارتهم العربية على حدود الروم . كما نزل المناذرة بالحيرة ، وقامت إمارتهم على حدود الفرس .
 وفي الوادى الأجرد ، بين جبال الحجاز الصخرية ، كانت « مكة » أم القرى العربية ، معبداً لله تعالى من قديم الحقب ، ثم آلت إلى مركز للعبادة الوثنية : دين القبائل العربية في شتى أنحاء الجزيرة .

وقد طال عليها الليل ، ولم تستطع طقوس الوثنية على كثافتها وغلظها ، أن تحجب سنًا البيت العتيق ، أقدم بيتٍ عبَدَ فيه الله على الأرض ، ولا أن تغض من حرمة التي لم يَزِدْها كُرُّ الغداة ومُرُّ العشيِّ إلا عراقة ورسوخاً .

كما لم يستطع الضجيج الصباحب في مواسم الحج إلى مكة وملتى القبائل في أسواقها بمكازب والميجنة وذى الجواز ، أن يطوى ذكريات التاريخ الدينى لأم القرى ، من يوم أن رفع « إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » وطهَّراه للطائفين والعاكفين والرُّكع السجود . وتتابع الحقب والدهور ، وهذا البيت العتيق حرم آمن ، ومثابة حج القبائل وموضع تقديسها . . .

* * *

وبقيت البيد وراء هذه الأطراف المعمورة والمنازل الآهله والحواضر من القرى ، في عزلتها الهيبية المرهوبة ، لا تجتازها القوافل في رحلاتها للحج والتجارة ، إلا بمجاية من العرب البدو سادة الصحراء ، ومع أدلاء منهم خبراء بمجاهل الدروب وعمياء المسالك في القفر الموحش .

وظل للصحراء سلطانها المادى والمعنوى على الحضريين ، تفرض عليهم تفسيرها للظواهر والغوائل ، وتسيطر على تصوراتهم بخيالها الطلق ورؤيتها للكون والحياة ، وتشحن وجدانهم بما لديها من أسرار القفر .

وكما ردُّ الضاريون بالفلاة غوائل الطريق إلى ما جسَّمه الوهم من أفاعيل الغيلان ، شقَّ عليهم وعلى الحضرة في القرى والإمارات ، تحليل الإلهام الشعري وفراسة الكهان ودهاء السحرة ، فردُّوها إلى أصحاب من الجن يتصل الكاهن والساحر بها في عالمها السفلى

(١) انظر تفصيل ذلك كله في : كتاب (تاريخ مكة) للأزرقى وكتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى)

الحنى ، وإلى توابع منها تأتي الشعراء من وادى عبقر ، فتلقى إليهم عبقرى النغم وروائع القصيد . قال راجزهم :

إني وإن كنتُ صغيرَ السنِّ
وكان في العينِ نُبُوٌّ عني
فإن شيطاني أميرُ الجنِّ
يذهب بي في الشعر كلِّ فنِّ

وقال الشاعر الخزرجي الخضرم « حسان بن ثابت » من شعر جاهليته بيثرب :
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْبَا نِي فَطُورًا أَقُولُ وَطُورًا هُوَّةُ

* * *

وخلفوا رؤاهم وأحلامهم وهواجسهم في وجدان الجزيرة ، ميراثاً يتلقاه خَلْفٌ عن سلف ، وتراثاً يتناقله الرواة جيلاً بعد جيل ، لم يُفَلت من تأثيره شعراء إسلاميون من بدو وحضر ، وفيهم مولدون وُلِدُوا وعاشوا في الأقطار التي فتحتها الإسلام ، في بيئات بعيدة أقصى البعد عن بوادى الجزيرة وفلواتها .

قال « ذو الرمة » الشاعر الإسلامي البدوي (١) :

ورملي لعزفِ الجنِّ في عَقْداته هريُّ كَنَضْرَابِ المَغْنِينِ بالطَّبْلِ
وقال « جِرَانُ العودِ النَمِيرِي » (٢) يصف إحدى لياليه :

حَمَلَنَ جِرَانَ العودِ حَتَّى وَضَعْتَهُ بَعْلِيَاءَ فِي أَرْجَائِهَا الجِنُّ تَعْرِفُ
وَقَلْنَ تَمْتَعُ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرَجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ
وقال « أبو النجم » (٣) مرتجزاً :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ
شيطانه أنثى وشيطاني ذَكَرٌ

وقد أضافت هذه الأجيال الإسلامية إلى تراث الشعر الجاهلي من شطحات خيالها وتصورات وهما ، ما وصل إلى القرن الرابع الهجري ، فجمع منه « المرزباني » كتابه في

(١) غيلان بن عقبة . ديوانه مطبوع في (المتن) ببغداد .

(٢) عامر بن الحارث النميري . ديوانه مطبوع في دار الكتب المصرية .

(٣) الفضل بن قدامة ، من أشهر الرجاز في العصر الأموي . انظره في : (الشعر والشعراء ، ومعجم الشعراء) .

(أشعار الجن) (١).

وفي القرن الخامس الهجرى ، كان الشاعر الأندلسى « ابن شهيد » فى أقصى المغرب ، يصوغ من رؤاه مباراة شعرية ملهمة بين تابعه وتوابع مقدّمى الشعراء وزوابع مشهورى الكُتاب ، وقد أفهمهم جميعاً (٢).

حين كان « أبو العلاء المعرى » فى محبسه بمجرة النعمان بالمشرق ، يملى فى (رسالة الغفران) ما تمثله من مشهد لقاء بشاعر من النجىّ المؤمنين ، وينطق على لسانه بقصيدتين مطولتين ، فيها عجائب وغرائب مما رسب فى عقلية بيئته من تصورات لعالم الجن (٣).

* * *

لكن بادية الجزيرة ، هى التى أعطت الأجيال من العرب ، كذلك ، سليقتها اللغوية النقية ، وبيانها الذى طوعته للتعبير عن وجدانها ورؤاها ومنطقها . أعطتنا العربية الفصحى ، بعد أن صقلتها على المدى الطويل بحسبها المهرف ، فأوصلتها إلى أواخر الجاهلية : قد أهملت الحوشى والغريب والثقل ، وما تنافر من حروف اللفظ أو كلمات الجملة . وهذبت صيغها بالإعلال والإبدال والقلب والإدغام والحذف ، واستقرت قواعد مطردة للتأنيث والتذكير ، وللأفراد والتثنية والجمع ، والتعريف والتشكير . وتصرفت فى المادة اللغوية للملاحظ من فروق الدلالات ، وتصرفت فى الفعل لضبط زمن وقوع الحدث ، وتمييز المعلوم من المجهول . واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارات والأسماء الموصولة وحروف المعانى ، ببالغ الدقة والإحكام . كما حكمت المعانى بصيغ المشتقات ونسق الألفاظ فى الجمل ، وسياق العبارة وعلامات الإعراب . وتوسعت فى المجال لتنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من استعمالها الحسى إلى المعنوى ، وتطورت أساليبها من قديم ، فخرجت عن معانيها فى أصل الاستعمال اللغوى . إلى معان بيانية وأساليب بلاغية للملاحظ فنية جمالية . كالمعروف من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية الأولى إلى الدعاء والاسترحام والتفجع والشكوى . وخروج أساليب الأمر

(١) ذكره ابن النديم فى (الفهرست) فى مصنفات أبى عبد الله المرزبانى ، الحراسانى الأصل البغدادى المولد والوفاة (٢٩٧ - ٣٨٤ هـ) . وذكره كذلك أبو العلاء فى (رسالة الغفران) صفحة ٢٩١ طبع الدخاثر .
(٢) انظر (التوابع والزواجر) لابن شهيد الأندلسى ، فى كتاب اللخيرة لابن بسام . ط جامعة القاهرة .
(٣) انظر المشهد فى لقاء ابن القارح بالشاعر الجنىّ أبى هدرش ، وقصيدتى أبى العلاء على لسانه ، فى (رسالة الغفران) ط الدخاثر . دار المعارف القاهرة .

والنهي والاستفهام ، إلى الزجر والتعجب والتقريب والإلزام أو الجحد والإنكار ، والعدول بالتعبير عن أصل استعماله في اللغة عن طريق الاستعارة أو المجاز أو الكناية والرمز .
ووصل إلينا الشعر الجاهلي بعد أن مر بمراحل طفولته التي غابت عنا ، مُحكَّم الإيقاع متسق النغم سخى الإلهام . تمضى القصيدة منه حتى تجاوز أكثر من مائة بيت عدداً ، دون خلل في نسق النظم وضوابط الإيقاع .

وبلغت العربية من ذلك كله ، مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة ، استطاع معه العلماء في عصر التدوين ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان وضوابط العروض .
وفي الجاهلية ، حددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جهود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يفرها ويمسح أصلها .

فبقدرا توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الألسنة التي خالطتها بطريقة أو بأخرى ، صوتاً للسانها . فاستغنت إلى أقصى المدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي معاني ما احتاجت إليه ، أو ما استملحته وانتخبته من الألفاظ الأعجمية . ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية ، إما بإلحاقه بأقرب صيغ الفصحى إليه ، أو بتغيير طريقة نطقه ، إشعاراً بتعريبه . وقد استطاع علماء العربية في القرن الثاني للهجرة ، وما بعده ، أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرب والدخيل ، تشهد بأن الأمر لم يُترك لفوضى العشوائية والارتجال ، بل خضع لنهج واضح التزمته العربية فيما تأخذ من الألسنة التي خالطتها^(١) .

ثم كان أن مارست العربية في جاهليتها المعروفة لنا تاريخياً وتراثياً ، حركة تطور باللغة الأهمية ، إذ اتجهت إلى استصفاء لغة مشتركة ، شبه رسمية ، تلتقي بها القبائل على اختلاف لهجاتها ، فيما يجاوز النطاق المحدود للقبيلة . وقد اختيرت لغة قريش ، بحكم موضعها من أم القرى والبيت العتيق ، وبما أتيج لها على المدى الطويل من انتقاء مختار الألفاظ والصيغ من لغات القبائل العربية الوافدة عليها في مواسم الحج الدورية التي كانت في الوقت نفسه مواسم أدبية شعرية ، وأسواق تبادل لغوي وتجاري . قال « ابن فارس » في كتابه (الصاحبي) في فقه اللغة :

(١) انظر : الزهر في علوم اللغة السيوطي . ومعه كتابي (لغتنا والحياة) . المعارف

[كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ويتحاضرون إلى قريش في دارهم . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنن ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنفت كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب] .

ونقل جلال الدين السيوطي في كتابه (المزهر) قول الفارابي :
[كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس]

* * *

وتجلت آية الرحمن في الإنسان علمه البيان ، في لغة بدوية لقوم أميين ، ما تزال تبهير علماء اللغة العصريين ، بما كان لها في جاهليتها الأمية من حس مرهف وذوق مصنف ونهج أصيل ، تسمى بها أرق لغات العالم المتمدن ، في دقة الدلالة وإحكام الصياغة واطراد قواعد التصرف ، وخصب المجاز وعلو البيان . .

فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى كانت هذه اللغة الفصحى أهلاً لشرف نزول المعجزة القرآنية بها . قادرة على أن تواجه أكبر حركة تحول لغوي عرفه التاريخ منذ كان ، بتعرب الشعوب التي دخلت في الإسلام بعد الفتح الكبرى . .

* * *

فلتسهل لنجتلي نور الفجر الصادق الذي بلغت فيه آية البيان ذروة الإعجاز ، وبدأت به لغة العرب حياة رحبة الآفاق بعيدة الآماد ، متجددة الطاقة مباركة العطاء . .

الفَجْرُ الصَادِقُ

«هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان»

«هو الذى بَعَثَ فى الأميين رسولاً منهم يتلوه عليهم آياته ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مبينٍ .»

[سورة الجمعة] صدق الله العظيم

ذات ليلة من أخريات رمضان ، بعد ميلاد المسيح عليه السلام بستة قرون وعشر سنين ، كفَّ أمُّ القرى صمتاً لاغب مكدود ، لا يُسمع فيه سوى أنفاس الليل مختلطة بهمهمة صلوات وثنية ، كانت ماتزال تتسلل من البيت العتيق .
 وقررمضان لم يبرز بعد ، فليس على الأفق المعتم سوى ضوء شاحب نحيل ، من نجوم تحجبها عن مكة جبالها الصخرية الشَّم .

ونامت الدنيا لا تلقى بالآ إلى « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي » إذ أوى إلى غارٍ هناك مستغرقاً في تأملاته ، يلتبس في العتمة الداجية شعاعاً من نور الحق وينشد في خلوته قسماً من هدى ، وخواطره تحوم حول مقام إبراهيم في البيت الذي آل مع الزمن ، إلى مثنى لأوثانٍ ممسوخة وأصنام شوهاء بلهاء .

والتاريخ مشغول عن هذا الأُمى الهاشمي ، بأحداث جسام خارج الجزيرة ، مشدود البصر إلى نذر الانهيار في عالم يريد أن ينقُص . يتابع الجولات الأخيرة للصراع بين قطبي ذلك العالم القديم ، حيث كانت دولتا الفرس والرومان تحوضان حرباً طاحنة على مراكز القوى والنفوذ ، وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها وبصيرتها فما عاد يعنها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبداً لتلك النار العقيم ، تصالها شعوبه بالفسر والإكراه .

والأخرى قد أُنحنتها جراح الحرب وهدَّتها أمراض الشيخوخة ، واستنزفت بقايا قوتها فنته الصراع الطائفي بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته ، فتهوى النسر الروماني على الأرض يحثم على صدور خلق الله ويكتم أنفاسهم ، ويتسلط على مستعمراتهم بالعسف والطغيان والاضطهاد ، في محاولة تستبقي له من الهيبة ما يسترهونه ، ويعوضه عن قواه المستنزفة ومجده الأقل .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، فلول من عصابات يهود ، تتربص بهم جنباً الدوائر لترث ملكهم ، وتجعل من الدنيا معبداً للوثن الأصفر ، يستأثر سدنته اليهود بمفاتيحه ، ويتولى أحبارهم شرح طقوس عبادته ، بعد أن عقوا الموسوية وكفروا برسولها ، وكادوا للمسيحية واتتمروا بنبيها ، وحرفوا كلمات كتابهم عن مواضعها ، لتلبي ما تأصل في خلقتهم من شر وخبث وجشع وأثرة ، وتستجيب لما في طبيعتهم من قسوة وحقد وعداوة للبشر .

وغير بعيد من غار حراء الذى سُغِلت عنه الدنيا والتاريخ ، هجعت مكة تجترذكريات مجدها الغابر وقد طوته وثنية ضالة عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلبي الوعى ، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم .
 ونامت قريش ، لا تحسب حساباً لهذا الهاشمى المختلى فى غار حراء ، وقد ألفت أن تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع المكيّ ، عازفاً عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين ، وماذا على القوم أن عزف « محمد بن عبد الله » عن أوثانهم ورفض أن يعبدها مع الله أو يعبد الله فيها ؟ ! كذلك فعل مثل محمد من الحنفاء ، ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان ، فى زحام أفواج الحجيج من قبائل العرب جميعاً ، ينثالون إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بأوثانهم فى الكعبة ويؤدوا طقوس عبادتها ، موسماً بعد موسم ، وجيلاً من بعد جيل . .

* * *

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان ، وينشر نوره على القمم والسفوح ، والبطاح والقيعان والأودية . .
 ومع نور الفجر البازغ من الليلة المباركة ، تجلى الوحي للمختلى فى الغار ، وألقى إليه كلمة الله : « اقرأ » .
 وما كان محمد بقارئ ، وما كان يتلو من كتاب ولا يحنطه يمينه ، من قبل أن يتلقى آياتِ الوحي الأولى :
 « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم » .
 وبدأ تاريخ جديد :

الرجل الذى سرى فى الليل إلى غار حراء على مألوفِ عادته منذ أنكر موضع الأصنام فى البيت الحرام ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفه وضلال . .
 خرج مع الفجر الصادق من الغار ، نبياً مبعوثاً يجتاز رسالات الله .
 والكلمات الأولى التى تلقاها فى ليلة القدر هذه من وحى ربه ، كانت مستهل كتاب معجز ، وآية بشر رسول ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، وصنعت أمة وقادت حضارة .

* * *

من الغار خرج المصطفى ، والنور ملء قلبه ، والكلمات ملء مسمعه ، وانجبت به خطاه نحو داره في جوار الحرم ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور الفجر الصادق ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسناً وضياء ، يكشف عما تكدّس في حرمة من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية ، صماء بلهاء . وقد كان لها من ظلام الليل ستر كثيف يخدع البصر والبصيرة . ويزيف الرؤية .

وتلا المصطفى كلمات ربه في قومه الأميين الذين لم يعرف التاريخ لهم كتاباً قط من قبل المبعث . وإن عرف فيهم صلابة البداوة ونخوة الطبيعة التي لم تفسدها أمراض المدنية وآفات الترف . ودعا إلى التوحيد ، جُفأة الوثنيين الذين بعدُ عهدُهم بالحنيفية ، وطال عليهم الأمد وهم عاكفون على أوثان وأصنام يخلقونها ويعبدون خالقهم فيها ، تجسداً لما شق عليهم إدراكه من الجلال الأسنى والحق الخالص والكمال الأسنى والمثل الأعلى .

* * *

على نور الفجر الصادق ، عرف الأميون طريقهم وخرجوا من ظلمات الجاهلية ، فما مضى على المبعث عشرون عاماً حتى كان عرب الجزيرة كلهم قد نبذوا الأوثان وحطموا الأصنام ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء . .

ومن هدى القرآن تعلم الأميون الكتاب والحكمة ، فأمنوا بإله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . . بعد أقل من نصف قرن ، من ليلة القدر المباركة ، كان هؤلاء الأميون الذين تعلموا الكتاب والحكمة ، يطفثون نار المجوسية ، ويبطلون سحر الكفرة الفجرة ، ويدكون صروح الطاغوت ، وينطلقون في الآفاق من مشرق ومغرب ، يحملون إلى الدنيا عقيدة التوحيد المحض والتتريه المطلق ، وينشرون في العالم الكتاب والحكمة . . ويبلغون البشرية رسالتهم التي ناط بها القرآن أمته ، في آياته المحكمات :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

[البقرة : ٢٥٦]

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

[الحج : ٤١]

« وَتُكُنُّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

[آل عمران : ١٠٤]

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

[آل عمران : ١١٠]

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

[الحجرات : ١٣]

« فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيدُهْبٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

[الرعد : ١٧]

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

[العنكبوت : ٤٣]

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

[فاطر : ٢٨]

* * *

وبدأت أمة القرآن من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد المسيحي ، تقود البشرية لتخرجها من ظلمات الجهالة والأمية ، وتحرها من عقدة الخوصومة بين الدين والعلم ، بما منَّ الله به عليها من عزة التوحيد وكرامة العقل . فانطلق علماء الدولة الإسلامية في عصر قيادتها للحضارة ، آمنين من إصر الكهنوتية مطمئنين إلى تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل الذي هو من جوهر الإنسانية الناطقة ، إذا تعطلَّ أو جمُد ، مُسخ الإنسان وهبط إلى دونية البهيم العجماء :

« إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » .

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وما ارتاب علماء الإسلام في أن العلم في عقيدتهم فريضة وعبادة وجهاد ، وهم ينظرون في الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، لاجتلاء عجب السنن الكونية

المحكمة ، ويمارسون التجارب العلمية العملية ، لتحقيق آية الله فيما سخر للإنسان : « ما في السموات وما في الأرض جميعاً » فقدّموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرفها أحدٌ قبلهم ، فكانوا هم الذين أصّلوا المنهج التجريبي الاستقرائي ، وأعطوا الإنسانية أوليات الكتب العلمية في الطبيعيات والرياضيات ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة العملية والرصد الفلكي والخبرة الجغرافية والملاحية . وبفضلهم تم نقل العلوم إلى مجال البحث التجريبي الذي لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلي النظري .

وكان رصيد خبرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمى ، قاعدة الأساس لعصر العلم الحديث الذى حقق تقدماً باهراً فى الغرب الأوربي ، انطلاقاً من عصر الإحياء (الرينسانس) الذى قام على تراث الحضارة الإسلامية وتزود بعطائها ..

* * *

شُرّف العربية بتزول القرآن بها ، كتاباً عربياً مبيّناً : معجزة بشيرسول ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ففرض إعجازه على العرب والفصحى لغتهم سليقة وفطرة ، والبيان طوع ألسنتهم .

وكتبت حياة جديدة رحبة الآفاق ، لهذه العربية التى ظلت أبداً إلى ليلة القدر ، منعزلة فى بواديها وقرها ، محصورة فى نطاق أهلها العرب الأميين :

من القرآن الكريم ، تلتقت العربية زادا سخياً مباركاً من أساليب البيان المعجز ، ومدداً من الدلالات الإسلامية التى استحدثها القرآن لألفاظٍ من عصرها الجاهلى ، كالإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والبصر والعمى ، والساعة والقيامة والحساب ، والجنة والنار . . .

ثم كان التحول الفذّ ، الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً قط ، وهيئات أن يعرف مثله أبداً :

شعوب العالم القديم ، كانت قد خضعت على طول ألف عام ، للاستعمار الأجنبي . وقد حاول الغزاة من رومان وفرنس ويونان ، أن يفرضوا عليها عقائدهم وألسنتهم وقومياتهم بالقسر والإكراه والإرهاب ، فواجهتها الشعوب بالتحدى والرفض ، بحيث ظلت على المدى الطويل ، عقائد أجنبي مستعمر ، ولغة دواوين وثقافة دخيل ، يرتن بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكم وجبروت الاحتلال :

من عجب أنها ماكادت تصغي إلى دعوة الإسلام من حَمَلته الفاتحين ، حتى استجابت له طواعية ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مجاهدة في سبيله ، مشاركة في حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية ، حتى بلغت بها أقاصى المشرق والمغرب . ونبذت كل ماضيها لتبدأ تاريخها الإسلامى ، أمة واحدة .

وفي نصف قرن فحسب ، كانت هذه الشعوب قد هجرت ألسنتها الأولى ، واختارت لغة القرآن لساناً لها ، وهى التى عصبت الزمن الطويل على المستعمرين الأجانب ، ففصوا عنها لم يخلفوا من بعدهم لغة لاتينية أو فارسية أو رومانية !

وسارت العربية مع القرآن الكريم حيث سار ، فإذا تراث الجاهلية من قصائد البدو وأراجيز الرعاة وأحاديث الفتيان في مسامر القرى ودروب الصحراء ، وموقف الشعراء في المواسم والأسواق ؛ تغدو تراثاً غالباً يلتمسه الرواة الإسلاميون من بوادى الجزيرة التى احتفظت بنقاء عرييتها ، ويشدون من أجله الرحال إلى منازل القبائل ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ماوعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

ثم عكفوا عليه ، يدونونه ويصنفون منه معجم ألفاظ الفصحى ، لغة الدين والدولة ، ويستقرئونه ليستنبطوا منه قواعد نحوها واشتقاقها وتصرفها ، وخصائص بيانها وموازين شعرها .

واستوعبت هذه العربية ، ما عرّب المترجمون من تراث الفلسفة اليونانية ونظريات العلم والفكر القديم ، فأدّته عربى اللسان إسلامى الروح . . . ووسّعها ، فى طواعية مرنة وحيوية فذة وأصالة راسخة ، أن تستجيب لاتساع آفاق الدولة الإسلامية ، واعية لدورها الجليل فى الوفاء بحاجات الحياة اللغوية للحضارة الإسلامية الرائدة ، ومدركة مغزى كونها لغة أمة قوية قائمة ، ولسان شعوب ذات عراقية فى المدنية والفكر والثقافة .

وما يزال التاريخ فى عجب من أمر هذه العربية : كيف استطاعت بعبقرية فذة ، أن تأخذ مجراها الحيوى بين الأصالة والتطور ، لتكون لغة الدين والعلم والأدب والثقافة ، لشعوب تفاوت ميراثها الحضارى ، واختلفت سلاتقها اللغوية باختلاف ألسنتها الأولى ، وتحقق وجودها اللغوى محافظة على أنقى أصالتها العريقة ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء ؟ !

ومن قبل أن تخترع المطبعة في الدنيا ، كانت دور العلم والحكمة تقوم على ساحة العالم الإسلامي من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، صروحاً شامخة للمعرفة ، ومنارات هادية في ليل العصور الوسطى .

ومن قبل أن تقرأ الدنيا أول كتاب مطبوع ، كانت هذه الدور الإسلامية كنوزاً عامرة بملايين الذخائر من الكتب المخطوطة ، في شتى فروع العلم وضروب المعرفة وفنون الثقافة . . .

ثم تغيرت الدنيا ، وتحول متجه الحضارة من الشرق الإسلامي إلى الغرب الأوربي ، على المعابر التاريخية التي نقلت تراث علومنا وكنوز حضارتنا : البوسفور وصقلية والأندلس . . .

وتعرض العالم الإسلامي ، مشرقه ومغرب ، لتيارات غزو جائح مذهبي وفكري ولغوي ، وعسكري واقتصادي . .

وبقيت العربية تتحدى ذرائع القهر والضياع ، وتفرض وجودها الحيوي على الدنيا . . . وبقى القرآن ، وبقى لنا أبداً ، يحمي وجود أمتنا ويقود مسراها في ظلمات الخن وغواشي الخطوب ، ويحلو بصيرتها بنور العلم والحكمة ، ويهدي خطاها فيما تحمل من تكاليف وجودها الحر الكريم ، جهاداً في سبيل الله ، ضد الباطل والشر والقيح : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار
« علم الإنسان ما لم يعلم »

من عجب أن صحراء الجزيرة العربية ، مهد العربية والإسلام ، ظلت بمعزلٍ عن كل هاتيك الأحداث الكبار ، لا تكاد تحس حركة سير الزمن بلغة العرب وأمة القرآن ، ولا تدرى شيئاً عما ارتدنا وارتاد غيرنا من جديد الآفاق ، واكتشفنا واكتشفوا من مجاهل الكون وأسرار الحياة وموازين القوى ، وسخرنا وسخروا بإذن الله ، من ظواهر الطبيعة وخواص العناصر. . .

مضت قرون أربعة عشر ، وملايين المسلمين في شتى أقطار الأرض يولون وجوههم حينما كانوا شطرَ المسجد الحرام في أم القرى ، مصبحين وممسين وعشيّاً وحين يُظهرون ؛ ومئات الألوف منهم يسعون إليه في موسم الحج من كل سنة قرية ، ملبين ضارعين :
 لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك
 غير أنهم قلما يتجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلا عن أن يوغلوا في الدهناء والربع الخالي . . .

وكلما هل هلال رمضان ، احتشدت مواكبهم لرؤيته ، وبدعوا به موسمهم الديني الكبير صياماً ومجاهدة ، احتفالا بالشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وقلوبهم ترنو في خشوع إلى غار حراء بمكة ، حيث بزغ نور الفجر الصادق .
 وصحراء الجزيرة ، على مسار تلك القرون ، قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المحجوب ، تترامى وراء أسوار جبالها الحاجزة عن تهامة وساحل البحر الأحمر ، ممتدة إلى شطوط الخليج ومشارف اليمن في عزلة موحشة : لا تعرفها دنيانا وإن تكلمت بلغتها ، وبابعت نبياً من صميم قبائلها ، وآمنت بدينٍ حمله إليها عربٌ خلّص من جند الإسلام الأولين .

. بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى جماعات من البدو الرحّل يهبون في فلواتها ملتصقين مواقع الغيث ومنازل المطر ؛ وعلماء الاستشراق في كبريات العواصم من عالم اليوم ، عاكفون على جمع ذخائر تراثها ودرس شخصيتها ، وطلابُ الجامعات والمعاهد في المشرق والمغرب يدرسون أصيل الفصحى ويحفظون أمثال البدو وأراجيز الرعاة ، ويعرفون وقائع مهلهل وعنترة ، ومغامرات الصعاليك وقصص الفتيان ، ويسهرون على نار حاتم والمخلق ، ويشجيم على بعد الديار بكاء الأطلال ومرأى

الأحباب ، ويكادون يسمعون رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شدِّ الرحال ، كأنهم مع الحارث بن حلزة البكري إذ يقول .
أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصبٍ جهالٍ خيلٍ ، خلالَ ذلك رغاء
بقيت الجزيرة ، فيما عدا أطرافها وقراها ، نائية مهجورة غامضة مقنعة ، لا تريد أن
تتصل بالدنيا خارجها أو تبيح حماها لغير أهلها الأعراب البداة . . قد آثرت العزلة على
الاتصال بالدنيا ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالها المتركمة وصخورها الصلبة ، أسواراً
منيعة تحمي أعرافها وتقاليدها وعاداتها ، غير مستجيبة لتطور الحياة ولا مكترثة بسير الزمان
[فلو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقاع من الجزيرة لما وجد ما يشير دهشته :
سيجد العرب في خيامهم السود ، والبلو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون .
سيجد كل شيء في مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ومظهرهم الجسافي لم
يتبدل]^(١) .

الدنيا الجديدة ، من وراء أسوار الجزيرة ، انتقلت من عصر البخار إلى الكهرباء
فالذرة ، ومن عصر القاطرة والباخرة إلى السيارة والطائرة ،
والجزيرة في عزلتها العنيدة تتحدى كل تغيير وتمتنع على كل تطور . وتترامى صحاريها :
الدهناء والنفود والربع الخالي ، من شرق نجد ومن شمال وجنوب ، حدّاً فاصلاً بين عالم
اليوم ، وتلك الصورة الباقية من قديم الزمان .
حياة فطرية بدوية ، لا تكاد تختلف في شيء عن تلك التي عرفتها العرب البائدة في
قديمها الغابر ، فيما عدا الإسلام الذي اعتنقته الجزيرة ديناً من زمن المبعث ، فكان آخر
عهدنا بالأصنام والأوثان .

« بحار من الرمال الناعمة تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحل
الرعاة ، المطرُ محور حياتهم ومشغلة بالهم ، فأهل نجد لا يأبهون لشيء إذا رزقهم الله المطر
تحيا به زروعهم وأنعامهم . أما الصحراء الجنوبية فلا يكاد يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل
ثلاث سنين أو أربع »^(٢) .

(١) ر ف . بولى . (الرسول) ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار .

(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب : ص ٦ .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لبعضهم فرصة الحياة الناعمة في حضر ، فرفضوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة القاسية . الحشنة الجافية . ويفرض أنها حياة تقصر الأجل ، فهي تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . والآجال ، بعدُ كتابٌ موقوت على الناس جميعاً ، بدوهم والحضر « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، « أينما تكونوا يُدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .
ولعل فيهم من لا يزالون يحفظون ، مع ما يتلون من آيات الفرقان في حتمية الموت ، أقوالاً لشعرائهم الجاهليين جرت مجرى الأمثال ، كقول الشاعر الشاب « طرفة بن العبد » البكري :

أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليومَ من غدٍ
لعمركَ إن الموت ما أخطأَ الفتى لكألطولِ المرخى وثناهُ باليد
وقول شيخهم الحكيم « زهير بن أبي سلمى » :
ومن هابَ أسبابَ المنايا يتلَّنه ولو رام أسبابَ السماءِ بسلمٍ
وقول « السلَّكَة » ، أم السلَّك « الفتى الجاهلي الصعلوك ، تبكى مصرعه :
راح يبغي نجوةً من هلاكٍ فهلكُ والمنايا للفتى رصداً حيث سلَّكُ
وشهدت دنياها في العصر الحديث مثل هذه المفارقات :

في ربوع النيل والشام وبلاد النهرين وإيران ، مما يلي حدود الجزيرة العربية غرباً وشمالاً وشرقاً ، قصور باذخة ، ومبان راسخة منها آثار تبلغ من العمر ألوف سنين .
وغير بعيد منها في الجزيرة العربية بُدأة رُحُل يسكنون الخيام المتنقلة معهم حيث نزلوا ، لا يعرفون في القرن العشرين ، فائدة للأبواب والنوافذ الخشبية « حتى إن البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين ^(١) إبان الحرب العظمى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف ، نزع خشب النوافذ والأبواب لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدؤوا نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جرّول ، اكتشفت أن النوافذ والأبواب الخشبية تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة . وأخرجهم جلاله الملك ثواً من الثكنة ، وأسكن الحضرَ

(١) الملك حسين ، الشريف الهاشمي ، أبو فيصل الأول وعبد الله ، ملكي العراق وشرق الأردن . كان الشريف حسين ملكاً على الحجاز حتى هزمه النجديون سنة ١٩٢٥ . ودخل الحجاز مع سائر مناطق الجزيرة في المملكة العربية السعودية .

فيها . والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب»^(١) . وكان الحجاج من الأقطار الإسلامية المجاورة للجزيرة ، يسعون إلى حدودها ، راكبين البواخر والسيارات والقطر الحديدية ، فإذا بلغوا الحجاز تنقلوا بالجمال من حيث جاءوا ، إلى مكة والمدينة .

وحين كان المنطاد (جراف تسيلين) يحلق في أفق الشرق الأوسط سنة ١٩٣٠ م ، كان مشايخ نجد وأهلها بعامة ، يرون التلغراف اللاسلكي من عمل الجن ، ويشفقون على عاهلهم « الملك الراحل عبد العزيز آل سعود » من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان الذين يزينون له استخدام السيارة واللاسلكي !

حدث « السيد حافظ » وهبة أن جلالة الملك أوفده إلى المدينة سنة ١٩٢٨ م ، مع عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإداري والديني .

« فجرى فكرُ التلغراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات . فقال الشيخ : لاشك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثقةٌ أن التلغراف اللاسلكي لا يشتغل إلا بعد أن تُذْبِحَ عنده ذبيحة ويُذَكَرَ عليها اسمُ الشيطان » :
« ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان ! ولقد كان شرحي لنظرية التلغراف اللاسلكي وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ . ولم أجد أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُ على مضض . . .

« وفي يوم من الأيام ، دعاني الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة ، عم الرسول - عليه الصلاة والسلام - عند (أحد) حيث استشهد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه - وفي أثناء الطريق ، أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكي . وهنا سألت الشيخ : لماذا وقفت السيارة ؟ فأجبت : لئرى التلغراف اللاسلكي ، فإذا كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله ، فإنى سأحرقه مهما تكن النتيجة ، فالدين لله لا لابن سعود . وقد يكون الملك مخدوعاً في أمر هذه التلغرافات ، وتذكر له الأشياء على غير حقيقتها .

« فقال الشيخ : بارك الله فيك » .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها . ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة . وفي دقائق ، تبودلت المخابرات والتحيات بينه

(١) حافظ وقبة : جزيرة العرب .

وبين جلالة الملك في جدة . . كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاةً للشك فيما كان يعتقد من عمل الشيطان في المخبرات . ولكنه ظن أني ربما دبرتُ هذه المكيدة بإيعاز من الملك . فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً في أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . وعندما وُضعت الآلة اللاسلكية واستعملت في الرياض - عاصمة نجد والمملكة - كان الناس يغري بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحدُّ بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من ياتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تُقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً . وقد أخبرني عامل المحطة أن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر . لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخلٌ في عمله . وكان بعضهم يغريه بالنقود ، وأنهم سيكتمون السر !^(١) .

ولم تكن السيارات والدراجات ، أسعدَ حظاً من اللاسلكي فركوب الدراجة - واسمُها في نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس - كان إلى عهد قريب إثماً ومعصية . فهي بدعة تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان في الإخوان ، مشايخ نجد ، من يرون من حقهم ، أو من واجبه المديني ، منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدام الملك !

وحدث في نجد ، وقد مضى من القرن العشرين نحو عقدين ، أن كُسرَت أولُ ساعة دقاقة ، وعُدَّت من عمل الشيطان . ولم تكد هذه الفكرة تُشاع ، حتى قامت قيامة الإخوان من سكان البادية ، منكرين استعمالها ، وأعلنوا في الناس فتياهم : « إن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » مما اضطر أحد المشايخ - الشيخ سعيد بن سحان - إلى أن يرد عليهم في رسالة نشرها سنة ١٣٣٤ هـ ، ١٩١٦ م . وطبعت في القاهرة سنة ١٩٢٣ م .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب ، ص ٣٠٨ .

المعركة الكبرى

« من اليوم ، سنحيا حياة جديدة »

الملك عبد العزيز

في مثل تلك العزلة العنيدة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من بوادي الجزيرة يعيشون بعقليتهم وأوضاعهم في حصون منيعة وراء الأسوار ، يشهرون السلاح في وجه كل تطور ، ويدفعون منكرات بدّعه بالسيف .

وكانت تلك هي المعركة الكبرى التي خاضها عاهل الجزيرة الراحل « الملك عبد العزيز آل سعود » على كثرة ما خاض قبلها من معارك مشهودة . أذكر منها معركته التي استرد فيها « الرياض » من خصمه القوي اللدود « محمد بن الرشيد » شيخ قبائل شمر شمالي نجد . وكان جيش عبد العزيز الذي اقتحم به لمعقل العدو في عاصمة نجد ، كتيبة من الرجال عدتهم أربعون ، أبى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم في خمسة عشر من صحبه ، عامل ابن الرشيد في حصنه بين جنده وحرسه ، فا انتصف النهار حتى أذن المؤذن من الحصن : إن الحكم لله ثم لعبد العزيز .

والأخرى التي لقي فيها عبد العزيز ، الشريف حسين ملك الحجاز ، سنة ١٩٢٥ ، فهزم جنده بالطائف ثم دخل مكة فاتحاً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، ثم جدة : آخر معاقل الأشراف .

لكن معركته الكبرى ، كانت هذه الثورة الإصلاحية ، يواجه فيها إخوانه وأهله وأصدقاءه ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وصديق ، من هؤلاء الذين انتصر بهم على الملك حسين وعلي ابن الرشيد !

ومثل هذه المعركة ، لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هي جولات تتعاقب وصراع يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن يدخل إليها جديداً من مخترعات الأجهزة ومحدثات العلم . وقد لبث زمناً غير قصير ، متردداً بين رغبته في الإصلاح ومسايرته الإخوان . وصارهم طويلاً وهم على موقفهم من عداة العلم الحديث ومعاندة التطور .

أراد العاهل الكبير أن يمد سلكاً تليفونياً بين مكة ومعسكره في جداء ، والمسافة بينها

تستغرق ثمانى ساعات ذهاباً ومثلها فى الإياب ، على ظهور الخيل والإبل السريعة . لكنه اضطر إلى إرجاء المشروع كيلا تنور نائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك التليفون « لأنها منكر تجب إزالته » .

حتى إذا لم يجد بدأ من نفع قومه وبلاده بمحدث المخترعات العلمية ، عمد إلى ملاينة الإخوان وإقناعهم بالحجة ، عسى أن يطمثوا إلى أن ذلك كله من تحقيق آيات الخالق سبحانه ، فيما سخر لنا مما فى السموات والأرض جميعاً . وفى مؤتمر بالرياض ، دعا إليه العاهل كبار المشايخ فى يناير سنة ١٩٢٧ ، كان أقصى ما وصل إليه منهم ، بعد طول المناظرة والجدل ، الفتوى المشهورة :

« . . أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم . فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم . والحزمُ بالإباحة والتحریم ، يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

وما كان لمثل الفُتيا أن تحسم الموقف ، وبدا أن الإخوان مصرون على توفيقهم فى كل « أمر حادث فى آخر الزمان هذا » مما اضطر العاهل المصلح إلى اصطناع الحزم فى كلامه معهم .

حدثت ، رحمه الله ، أن المشايخ حضروا عنده لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : ياطويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن « فلبى » سيجر علينا المصائب . فقال لهم الملك : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد . ولست والله الحمدُ بضعيف العقل أو قصير النظر لأُخدع . . وما « فلبى » إلا تاجر ، وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تَماسكوا بعضكم ببعض ، لا تدعوني أهز رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض ، لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيها كلام أحد لظهور فائدهما لى ولبلادى ، وليس هناك من دليل أو سُنَّة يمنع من إحداث : اللاسلكى والسيارات » (١) .

(١) عبد الرحمن نصر : عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها ، و فلبى ، سانت جون : كان ضابطاً سياسياً فى دار المتدوب السامى ببغداد . أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود سنة ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمعركة فى الميدان الشرقى دائرة بين الإنجليز والترک . وقد أشهر فلبى إسلامه ، وسمى نفسه « عبد الله » ووضع خبرته الاقتصادية والسياسية فى خدمة الملك عبد العزيز ، وخدمة الإنجليز بطبيعة الحال :

ولم يحسم النزاع ، بل نال بعضهم العاهل الإمام « بمولاة الكفار والتساهل في الدين . وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب وليس العقال . إلى غير ذلك من ضروب الجهالة » وأصبحوا يُحرّمون كل ما لا يتفق ومذهبهم . حتى كادت تكون فتنة أهلية بين الإخوان والحكومة ، بين البدو والحضر . فجرد العاهل كتيبة من شباب المتفقيين في دينهم ، وأوفدهم إلى شباب الإخوان ، عسى أن يُصلحوا ما أفسد الكبار ولما بلغ الأمر أقصى مداه ، عيل صبر العاهل الشيخ ، فأرسل جنده في مستهل سنة ١٩٣٠ لتأديب « العصاة الذين طغوا وعاثوا في الأرض فساداً ، باسم الدفاع عن الدين وجئى برأس الفتنة » فيصل الدويش « بعد معركة أم الرضمة ، إلى خيمة الملك في سيارة مكشوفة فكانت اللعنات تُصب عليه من أتباعه ، لركوبه السيارة ! وكان مما قاله الدويش بعد انكساره :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا . وقد فعلت كل ما يبض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار فحملونا إليك في طائرة من طياراتهم . ويكنى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان ، بعد أن كنت عزيزاً محترماً »^(١) .

وقد عدّ بعض الكتاب معركة (أم الرضمة) وما تلاها من استسلام « الدويش » للملك عبد العزيز : من المعارك الفاصلة بين النظام والفضوى ، وعدّوا نصر الملك فيها : نصراً للتقدم على الرجعية . وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها ، بعد أم الرضمة : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » .

لكن الواقع أن تحضير البادية لم يكن ليتم باستسلام هذا المتمرد أو ذاك ، ولا كان بحيث يتقرر في هذه المعركة أو أخرى ، وإنما هو الصراع المستمر المتحفز ، يتجدّد مع كل مجلوب من مستحدثات العلم . وقد يكن فترة تحت رماد الخضوع أو المداراة ، ليعود بعد حين أحدّ ضراماً .

والذى حدث بالفعل بعد تلك الجولة ! أن حركة التحضير والتعمير سارت بطيئة في

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على الملك عبد العزيز سنة ١٩٢٩ ثم لما حاقت به الهزيمة هرب إلى الكويت وسلم نفسه إلى دورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز - انظر : عاهل الجزيرة ٢٢١ :

وجه مقاومة قوية من سلطان الإلف والعادة ، وموروث الأعراف والأوضاع . ويشهد على ذلك أن الملك عبد العزيز أعلن ، رحمه الله ، بدء الحياة الجديدة ، في شهر يناير سنة ١٩٣٠ ، وظلت البادية بعد ذلك تنظر في حذر وارتياب إلى كل خطوة نحو التحضر ، وتحاول أن تدفع منكرات البدع باللسان أو القلب ، بعد أن عجزت عن دفعها باليد . . . وبدا كأن الصحراء في حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حداً لهذه الحرب الخفية ضد العلم الذي يتجه إلى الإسلام في ترسيخ الإيمان ، وتُمكن عاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته في إصلاح وطيد الأسس حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذرة ، المهذبة في أي وقت بهجوم مضاد من الرجعية ، يعيدها القهقري مجهدة مقهورة .

* * *

هل قلت إن المعركة كانت بين الرجعية والمحدثات من بدع الأجهزة والآلات ! إنني إذن لم أقل كل الواقع ، فالحق أن أبعاد الصراع كانت أعمق غوراً وأوسع مجالاً ، لم يقف الصراع عند (البدع) المستحدثة في آخر هذا الزمان ، بل امتد إلى نمط العيش ومواد التعليم موغلا في الصميم ، لم يكذب يدع كبيرة ولا صغيرة من شئون الحياة . وقد نقلت آنفاً ، ما كان من نيل بعضهم الإمام العاهل بموالة الكفار والتساهل في الدين ؛ وإنتكارهم عليه تطويل الثوب والثياب ولبس العقال . ولنا أن نتصور مدى ما كان المجدد المصلح يحتاج إليه من جهد وصبر وحزم وحكمة وطول بال . لكي يتغلب على عناد قوم ضجوا لأن المدارس تريد لتفتن التلاميذ عن العلم الحق الذي لا يمكن أن يخرج عندهم عن التفسير والحديث والفقهاء وعلوم العربية وتاريخ الإسلام . وكان من مظاهر الضجة أن « اجتمع علماء الدين من النجديين ، سنة ١٩٣٠ وتشاوروا في الأمر ، ثم أصدروا قراراً بالاحتجاج على إدارة المعارف في مكة ، لأنها أدخلت في برنامج التعليم : الرسم واللغة الأجنبية والجغرافية . » !

ولم ير العاهل من الحكمة أن يمضى في سبيله غير مكترث لاحتجاج المشايخ ، بل أوفد رسولاً إليهم « ليجلواهم الأمر ويبحث معهم في شأن هذه المسائل التي احتجوا عليها وطلبوا إلغاءها من برامج التعليم . »

قال قائلهم :

« لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار

وعلمهم الفاسدة ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا . وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض ودورانها ، والكلام على النجوم والكواكب ، مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف .

أريد لأقول : إن معركة أم الرضمة لم تكن الفاصلة كما بدت في حينها ، فهذا الرفض لتدريس الرسم والجغرافية بمدارس مكة ، قد كان بعد استلام فيصل الدويش للملك عبد العزيز . ومشايخ نجد قد كانوا « يجرمون دروس المنطق والفلسفة ، وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء ، أن يصرفوا أعمارهم في الرد على مخالفيهم » ، ومن ثم أرادوا لإمامهم عبد العزيز ، أن يشغل بالدفاع عن مذهب نجد الوهابي ، والجهاد في سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب البدع ، وحماية البلاد من كل طارئٍ دخيل . .

* * *

وفيما كان الصراع على أشده بين التطور الحضاري والجمود على موروث الأوضاع والأعراف ، تجلت آية العلم فكشفت في الفلاة الموحشة المغلقة ، عن كنز ثمين مطمور تحت الحصى والرمال .
وسقطت الحواجز والأسوار . فإذا بصحراء الجزيرة تشد إليها الأنظار والأسماع في عالم اليوم . . .

* * *

وجهاً لوجه في قلب الصحراء . . .

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض
جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »
صدق الله العظيم

كانوا أشبه بفريق من الرحالة الرواد ، نزحوا من العالم الجديد في بداية الثلث الثاني من هذا القرن العشرين ، ونصبوا خيامهم بين جبال النهدين والظهران على حافة الربع الخالي ، حيث لا ظل ولا ماء ، بل المهمة القفر تمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، ماحلاً موحشاً رهيباً ، تتلوى خيوط الرمال على أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعلى قمم وكثبانها ، فتجاوبها من السفوح والقيعان أصدااء كأنها عزيف الجان ، فهي كما وصفها « ذوالرمة » من وراء نحو ألف وثلاثمائة سنة :

ورملٌ لِعَزْفِ الْجَنِّ فِي عَقْدَاتِهِ هَرِيرٌ كَتَصْرَابِ الْمَغْنِينِ بِالطَّبْلِ
نصبوا خيامهم هناك منبوذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة في الليل البهيم تخلع الأفئدة . قد هجروا الأهل والولد ، وتركوا الحياة الناعمة المترفة في أمريكا وراء ظهورهم ، عسى أن يكشفوا عن ينابيع للبترول قد تكون مطمورة تحت أديم بقعة من هذه الفلاة الموحشة .

قبلهم ، كان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هناك ، في شتاء سنة ١٩٣٠ ، ونقبوا عن الزيت في الشمال الغربي من نجد ، ثم مضوا يائسين من الصحراء ، بعد أن أذابوا في رمالها الملتهبة أكداً من المال مختلطة بالعرق من جهد ضائع .

فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون المحاولة ، بأمل جديد . وكانت منطقة الأحساء ، شرقي نجد والدهناء ، وجهتهم هذه المرة . فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موقدين من شركة « ستاندرد أوبل » في كاليفورنيا ، وهي الشركة الوحيدة التي قبلت الدخول في هذه المغامرة وتمويلها ، سعياً وراء كثر مجهول المكان ، مشكوك في وجوده وقيمه .

وفي اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى الظهران بعد توقيع اتفاقية الزيت مع الحكومة السعودية . وجاء معه بالرجال والآلات للتنقيب التمهيدى ، وبدأ الحفر فعلاً في آخر أبريل من سنة ١٩٣٥ .

* * *

أكبوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، يحفرون وينقبون ، بين قيظ يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يثلج البدن ويُجمد الدم ، منقطعين عن الدنيا نائين عن العمران ، يحيط بهم القفر اليباب من كل جانب ، وتراقبهم عن كثب عيون حديدة البصر ثاقبة النظرات . تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل في حذر وارتياب . تلك هى عيون العرب النجديين الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه في قلب الصحراء ، فكان صراع غير سافر ولا صريح .

* * *

خمس سنين من الجهد المضى والحياة الخشنة القاسية والعمل الكادح ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات ، قبل أن تبيح لهؤلاء الكادحين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم في لحظة من راحة وأمان .

خمس سنين ، قضاهما أبناء الدنيا الجديدة في مجاهل المنطقة ، يحفرون البئر بعد البئر وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء ضئيلة بسرهما مسكة عن العطاء لا تقدم إلى ضيوفها الغريباء إلا القَيْظ والزمهرير ، ولسع الصخور وعواصف الرمال ، والوحشة والملال . ولا تكف عنهم ملاحقة حراسها الغلاظ الأشداء ، الذين أغضبهم أن تطلأ أرض الجزيرة قدم كافرٍ من الفرنجة . .

لكن الباحثين عن الكثر ، كانوا يدركون أن اليأس هو عدوهم الألد ، من ثم راحوا يجاربون هذا العدو في أنفسهم ، ويحشونه أكثر مما يحشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . . أما التعب والملل وشظف العيش وعسر الحياة ، فداخل كل في الحساب ، وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا ، أنهم ملاقو هذا النصب كله ومثله معه ؟

* * *

وكانوا قد تعلموا في مدارسهم ومعاملهم بالقرب الحديث ، ألا ينصرفوا عن متابعة التجارب ، بعد إخفاق الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة . . .

وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جيروت العلم مع جيروت الصحراء ، فتم النصر للعلم :
هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كترها من دأبوا على البحث عنه
في عزيمة صامدة ، وإرادة عنيدة لا تتخاذل .
وتجلت آية العلم في صحراء الجزيرة التي أصغت من نحو أربعة عشر قرناً إلى كلمات
الوحي الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق »

فسبحت خاشعةً باسم الله الذي :

« علم الإنسان ما لم يعلم »

انتصر العلم وأثمر الجهد هذه المرة السابعة ، فأذاع البرق في اليوم الثاني عشر من مارس
سنة ١٩٣٨ نبأ حفر أول بئر للبتروك في الظهران من حقل الدمام الذي بلغت مساحته تسعة
آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم . وعدد آباره اثنتين وثلاثين !
ثم توالى الأنباء من بعد ذلك معلنة في الأعوام الأولى عن اكتشاف حقول :
أبو حدرية : سنة ١٩٤٠ وتُرك مُغلقاً .
بُقيق : سنة ١٩٤١ ومساحته سبعة وسبعون ألف فدان ، وعمقه إحدى عشرة قدماً ،
وآباره ثمان عشرة .

القطيف : سنة ١٩٤٥ ، وعمقه سبعة آلاف وثلثمائة قدم ، وآباره اثنتان .
ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود يتدفق سخياً من ينابيعه في جوف الرمال .
وعلى الرمال الملتبته ، تحت شمس الصحراء المحرقة وفي قلب القلاة المهجورة
الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت في أنابيب تمتد أميالاً إلى موانئ الشحن
والتفريغ على سواحل الخليج والبحر المتوسط .
ولم يكن التفريغ أمراً هيناً .

أما في الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول إلى الدمام لتحمل هذا السيل الدافق ،
عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم فلم تستطع أن تصل إلى الساحل عند الدمام ، ميناء
الظهران ، لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور .
لكن العلم لم يعجزه أن يصل حافة الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل
تقدم فبنى ميناء تمتد ثمانية أميال في عرض الماء . .
وأما عن البحر المتوسط ، فكان على حاملات البترول أن تقطع ثلاثة آلاف ميل كي

تصل من معامل الزيت في الظهران ورأس تنورة ، إلى موانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس . . وتقدم العلم فدف خط أنابيب ، طوله ألف وسبعون ميلاً فقط ، مبتدئاً من الأحساء ، ومتجهاً شمالاً بغرب إلى تل الخبر قرب حدود الأردن ، ومواصلاً امتداده في هذا الاتجاه عبر الأردن وسورية إلى أن يصل إلى ميناء صيدا ، من الساحل اللبناني .

ويبلغ قطر الأنابيب في هذا الخط ، ثلاثين بوصة . صُنعت بحيث تحتمل التمدد والتقلص من اختلاف درجات الحرارة ، ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء ثلاثمائة ألف برميل من الزيت ، كل يوم .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم . وسجلت الإحصاءات الرسمية صعود الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل سنة ١٩٣٩ ، إلى خمسة ملايين سنة ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلاثمائة ألف برميل سنة ١٩٤٥ ، ارتفعت إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل سنة ١٩٤٨ (١) .

وماتزال هناك آبار مغلقة لم تُستغل بعد .

* * *

ومع الزيت ، تدفقت الثروة ، فإذا بالصحراء القاحلة الماحلة الجرداء ، تجود بملايين الجنبيات كل عام ، نصفها للمملكة العربية السعودية صاحبة الكثر والأرض ، والنصف الآخر لشركة أرامكو صاحبة الامتياز (٢) .

وآن للمهاجرين المتعبين أن يظفروا في تلك الفلاة الموحشة بحياة لعلها لا تقل عن حياتهم الأولى في أمريكا رغداً وترفاً . ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة عامرة غناء . .

* * *

هل خفف الصدام بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ، بعد أن جادت الصحراء بعطائها ؟

(١) لزيد تفصيل عن قصة البترول ، انظر كتاب : (المملكة العربية السعودية) تأليف كارل تويتشل ، ترجمة السيد شكيب الأموى و . طبع في دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) جدُّ على الاتفاقية الأولى ، تغيير لشروطها وتعديل لحقوق المملكة ، وامتزال الدول المنتجة للبترول تابع جهودها في سبيل عدالة التوزيع لعائد البترول .

كلا ، بل هو باق هناك ، وإن بدا للنظرة السريعة أن العهد به قد انتهى .
ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم : فما تزال العيون
السود تلاحق أولئك الأجانب الغرباء . بنظرات ثابتة ملؤها الشك والحذر ، ساهرة على
حراسة تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشريعة الإسلام ، من ذرائع الغزو .
ولا تكاد ساعة تمر ، دون أن تذكر الجزيرة هؤلاء الغرباء بأنهم أجنبي ، جاءت بهم
ضرورة اقتصادية ومدنية تقدر بقدرها . ولا ينبغي لهم أن يتخطوا الأسوار التي بناها عاهل
الجزيرة ، وأقام عليها الحراس الأشداء .

وهي أسوار تسمح للمدينة الغربية أن تعمر الصحراء وتجلب إليها ما شاءت من محدثات
الأجهزة والآلات ، لكنها لم تسمح بتسلل غزو فكري يمسخ أصالة العري أو يفتنه عن
إيمانه وتقاليده ، أو يستعمر أرضه .

فلا بأس على الجزيرة مثلاً ، إذا هي استوردت أحدث الطائرات من مصانع الغرب ،
لكنها لا تأذن لها في أن تجوس أجواء الجزيرة . إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومي
الديني :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

* * *

في نطاق هذه الحواجز يعيش الأجانب في شبه عزلة ، لهم أحياءهم السكنية الخاصة ،
بمدارسها ومستشفياتها ومطاعمها ، لا يكادون يندمجون في أهل نجد ، خارج منطقة
العمل .

ويوم العطلة هناك الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوروبيين على السواء .
والتقويم الهجري هو الذي تورخ به معامل أرامكو ومكاتبها ، مثل سائر البلاد .
والتوقيت العربي هو التوقيت الرسمي : تشرق الشمس في الساعة الواحدة ، وتغرب في
الثانية عشرة .

ومحظور بتاتاً ، أن تقام كنائس في مهد الإسلام وجزيرة العرب ، وأن تدق أجراس
ونواقيس ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام من فجر المبعث .
ولا يؤذن لأى قسيس أن يطاء أرض الجزيرة لمهمة دينية ، فمن شاء من المسيحيين أن
يتزوج رحل إلى البحرين مثلاً ، ليعقد إكليل العرس .
وغير مسموح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمر ولحم الخنزير ، كما يحظر على

(الكائنين الأمريكانى) عرض هذه المحرمات للبيع .
ويحتمل رجال الشرطة مسئولية أى مخالفة لهذه القوانين ، تقع فى دوائر عملهم .
مفروض على الأجانب أن يعيشوا هناك ، جنود تعمير لا دعاة استعمار .
وبهذا استطاعت الجزيرة حتى الآن أن تحمى استقلالها من سيطرة الدخلاء ، وإن
تركت المدينة والعصرية تغزو الصحراء وتعبد طرقها وتضيئها بالكهرباء . .
وترنو الجزيرة إلى غد يستطيع فيه أبناؤها أن يسيطروا على الآلة ، وفى سبيل هذا الأمل
المرجو ، فرضت على شركة أرامكو أن تنشئ فى الظهران مدرسة لتخريج صناع من أبناء
العرب ، يدرسون أسرار الكهرباء والميكانيكا والتكنولوجيا ، ويوفد الناجحون منهم إلى
أمريكا ليكون منهم المهندسون والخبراء والطيارون . .
ترى هل يستطيع هؤلاء الشباب أن يقاوموا فتنة الفرنجة فى أمريكا كما قاوموها فى
الجزيرة ، حيث القوانين صارمة والحراس أشداء ؟
الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى هذا الجيل من شباب العرب بالأمريكان وجهاً
لوجه فى قلب العالم الجديد ، كما التقى جيل قبله وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . .

ثورة في الصحراء

« وَارزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »

على متن الريح فوق السحاب ، كانت رحلتنا ما بين جدة والظهران . وقد مضت بنا الطائرة تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحدق من نوافذها الصغيرة في الصحراء المترامية من تحتنا ، فلا نرى خلال ساعات أربع غير التيه ، تتدافع فيه أمواج الرمال المتقدة في وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحبا كالضباب ، يلف هذا القفر اليباب . .

أربع ساعات عبر المهمة الماحل الأجرد ، لم نلمح فيها أثراً لحياة أو معلماً لطريق ، ولا سمعنا سوى أزيز الطائرة وهي تتعثر في كهوف الهواء . .

ونظرت إلى رفاق السفر في الطائرة ، فإذا فيهم نفر من البدو ركبوا معنا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط الريح . وإن فيهم من شق أكباد الإبل في مسيره . عبر هاتيك الفيافي التي لا تنفك في مخيلتهم ملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش . . وعظفت على بدوية كانت تجلس أمامي في عباؤها السوداء فسألتها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد قبل اليوم ؟

فأجابت بصوت هامس ، حرصت على ألا يبلغ مسمع الرجال الأغراب :
- بل هذى أول مرة أخرج فيها من ديارنا ، وما عرفت قط غير الإبل مركباً .
قلت : فما ترين في رحلة اليوم ؟

ردت من فورها : عجيبة والله ! وما أدري أمي من فعل ساحر من مردة الجان ، أم يعيش في زمننا هاذاك بقية من جند النبي سليمان ؟

ولما سألتها بلغة البادية ، أين تحط رحالها ؟

أجابت بأنها لاحقة برجلها العامل في (الكامب السعودي) بالظهران . فابتسمت للمفارقة الطريفة بين عبارتي البدوية : تحط الرحال ، واللفظ الحديث الدخيل : الكامب .

وحمل لنا مضيف لحمًا طرياً وخبزاً طازجاً شهياً وشراب الكولا والأناناس ، فأخذت

أرغب جارتى وهى لا تجرؤ على مس أقداح الشراب ظناً منها أنه من الحرام . . .
ولاحت لنا مياه الخليج أشبه بواحة في الصحراء ، وحوّمت الطائرة حول مطار
الظهران وقد تناثرت فيه الحظائر والمباني كأنها أعشاش طير ، وعلى أرضه كانت بضع
طائرات جائمة ، شبيهة بجراد منتشر .

ولبت الطائرة نحو عشر دقائق تدرج فوق ساحة المطار ، قبل أن تستقر على مهبطها ،
ونحن لا نكاد نصدق أننا عبرنا الجزيرة من جدة على ساحل البحر الأحمر ، إلى الظهران
على ساحل الخليج ، فى ساعات ما بين ضحى وأصيل !
وتمثل لى آنذاك شاعرنا « طرفه » وهو يضرب بناقته فى الدهناء أياماً وليالى ، ورحت
أسترجع أبيات قصيدته المعلقة ، فى وصف مطيته تلك الأمون الدلول !
هكذا من الناقه إلى الطائرة !

من الهودج ، إلى صالون داكوتا وبريستول ؟
من ماء الأمطار والآبار والعيون ، إلى شراب الأناناس والكولا ؟
ياله من انتقال سريع عبر هوة شاسعة ، فما عرفت الدهناء من قبل عربة أوسيارة ،
ولا عهدت قطارا يجوس خلال دروبها ويمرق بين كتبائها ، حتى اليوم !

* * *

وكان مقامنا بالظهران فى غرفات عصرية من دار الضيافة ، وثيرة الفراش مضاءة
بالكهرباء ، مكيفة الهواء لا نرى فيها شمساً ولا زمهريراً .
وليس بيننا وبين الصحراء بقبض نهارها وصقيع ليلها ، سوى جدار بسيط تسفحه
السافيات وتلطمه الهبوب .
أى ثورة وأى انقلاب ؟

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد
والأوتاد وتُشد بالأطناب . ولا ترى من الطعام سوى الخبز القديد ولحم الإبل ويابس التمر
وماء المطر . أما الغرفات المبنية والنعم الطيبة فكان موعدهم بها فى جنة الخلد ، إذ المؤمنون
« فى الغرفات آمنون » ، « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » ، « وفاكهة مما يتخيرون .
ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

هى آية العلم كشفت عن الكثر الخبوء فى أحشاء الدهناء وأعطت الثروة وبثت الحياة فى

ذلك الخراب ، وحولت التيه المهوب إلى جنة في الصحراء .
 هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعل حمراء ساطعة الذوائب ، تضيء هذا الظلام مؤذنةً
 بعهد جديد في الدهناء التي طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومذكرةً بنار القرى التي كان
 حاتم الطائي يأمر غلامه بإيقادها على جبال طيبى في ليل الدهناء ، وبتللك النار الأخرى التي
 بات عليها « أعشى قيس » آكلًا شارباً ، في ضيافة « الملق » وبناته ، ثم غدا ساعياً إلى
 الموسم وهو يترنم بأبياته المشهورات :
 لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرقُ
 تُشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والملق
 فرجعت أرجاء الجزيرة صدى صوته عبر قرون طوال من ليل الجاهلية ، حتى بلغ منا
 مسمعاً ونحن نتجول في الأحساء ، منتصف القرن العشرين .
 ومعالم العمران ماضية في غزوها للصحراء ، تنجاب أمامها ظلال الأشباح التي طالما
 عمرت الدهناء والنفود والربع الخالى ، وتجولت طليقة بين النهدين والظهران . .
 معلنة أن العلم قد انتصر على عناد الصحراء ، كما انتصر على غيرها من برّ وبحر ، وذلل
 شوامخ الجبال الراسيات ، وسخر السحب واتخذ سبيله بينها سرباً إلى أعالي الفضاء .
 وأنابيب الزيت تعترض سبيلنا هناك وهناك ، ممتدة شرقاً من الدمام ويقيم
 ورأس تُّورة إلى البحرين على ساحل الخليج ، وشمالاً بغرب ، إلى صيدا على ساحل البحر
 المتوسط .
 مسجلة أن الإنسان قد اكتشف السر الخطير الذى أجهته أحشاء البيداء دهوراً
 وأحقاباً ، وأزاح كئبان الرمال والصحور عن منجم الذهب الأسود المطمور تحت أديم
 الصحراء . .

صَوْرٌ مِنْ الْجَزِيرَةِ

- المَغْرِبَات
- جَارَةُ النَّبِيِّ
- هَاجِر
- آمَنَةُ

المغربيات

« ... ليتنا نقدر أن الغرب ، الظافر الغالب ،
يدين لهؤلاء المغربيات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ
سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى
اغتنبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلاً
واستبيح ! .. »

لقيتُهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهم ،
وتبعن أزواجهن إلى ذلك المكان النائي الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأنس
الأسرة ، ما يعينهم على العمل الكادح والكفاح الصعب ، بين الصخور والرمال . . .
لقيتُهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوريبات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد
رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة يمسحن بأناملهن الرقيقة العرق المتصبب من جباه
رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتُهن هناك : ابتسامةً وضيفةً فى وجه الصحراء الغضوب ، وأطياًفاً رشيقةً أنيقة
وسط المهمة القفر ، ونعمة عذبة ترؤح عن الرجال الذين يعملون بين ضجيج الآلات
الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة على حافة
العمران . . .

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للمغربيين مساكن
طيبة ، حولها حدائق مزهرة غناء ، تصد عنها بعض لفتح الهجير وعواصف الرمال ولطافات
الرياح السافيات !

ولم يشق على شركة الزيت أن تضىء منازل رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ،
وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » ، لكنها لم تكن لتستطيع - ولو ظفرت بمال
قارون وعثرت على كنوز سليمان - أن تزدود عن الرجال الضجر والملال والوحشة ، وأن
تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حينما مست يداها ! أوتبت فى
المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحاً من الأناست واللفظ

والرقة والحنان ، كنتلك التى تلقىها الزوجات والأمهات !
 هن اللواتى يجعلن المنازل بيوتاً وسكناً ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن
 فى الأرض الفاحلة الماحلة ، زهرات إنسانية يانعة ، تعطر الجوّ الصحراوى بأريج الطفولة
 الباسمة المتفتحة للحياة !
 ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ،
 واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب .

* * *

ومضيت ألتبس مصرياً واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !
 وقيل لى فىا قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ،
 فلم يستجب لها أحد كما استجاب آخرون : من الهند وإندونيسيا وإيران ، وسورية ولبنان
 وفلسطين ، وأوربا وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار
 لا يظفر به أجنبي ، وتترهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربيين الغريباء ؟
 لسبب بسيط ، هو أن المصريين يأتين الهجرة ولو إلى قطر شقيق ، ويرفضن أن يتبعن
 أزواجهن ولو إلى بلاد العرب ، مها تكن المغريات ^(١) !
 وكنّ أولى بأن يفعلن ، لأن حياتهن هناك لا يرهقها شعور بالغرابة ، فى بلاد نتكلم
 بلغتها ، وندين لها بالإسلام !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غريبات أعجميات لا يعرفن حرفاً من العربية ،
 ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن - إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس
 ودخول القسس والرهبان - فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياة ، مصرات يتزلن هناك
 بين أهل وجيران ، وإخوانٍ فى الدين واللغة والقومية ؟

أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى الظهران ، غربية عصرية ، قد تكون ولدت
 فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى قلعة الكباش ،
 أو صفط تراب ، أو زاوية الناعورة ، أو دشنا وفرشوط ؟

(١) كتبت هذا ، سنة ١٩٥٢ ، قبل أن تلوح على أفقا بوادر السعى إلى العمل فى الأقطار العربية الشقيقة ، إعاة

كلا ، ليس في الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأى
هكذا خَلِقَنَّ ، والأمر لله !

إن المصرية تأتي أن تترج من القاهرة إلى الجيزة ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ،
ويندر أن ترى قاهرة ترضى بالزواج من رجل يعيش في الريف ، ولو كان من ملاك
الأراضي وكبار الموظفين .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون في الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ،
يحتملن العيش بعيداً عن أضواء العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشتت لإتمام
عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدق ، عن طالبي النقل
إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء في جزيرة العرب ؟ !
إني لأذكر زوجات بعض الموظفين في إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، في
منطقة أشبه بالجنة ، قد رفضن أن يعشن هناك في (الفيلات) الأنيقة المضاءة بالكهرباء ،
والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . .
وفي مجاهل إفريقية وآسيوية ، تعيش غريبات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن في
الحياة ، ويقدرن واجبهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، الظافر القاهر ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من
نفوذ سياسي واقتصادي ، في أرضنا الطيبة التي اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذي غلب طويلاً
واستبجح ! ! . .

جارة النبي . . .

«قلنا ياناركونى برداً وسلاماً على إبراهيم» .

سعيينا إلى الحرم النبوي في جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذي ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدنيا ، وتُرَجِّعُه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والأودية في رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسيحة مؤمنة وترنمة هائلة !
وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالتنا وسرنا خُشَعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفأ الحس وشفَّ الشعور ورقَّ القلب ، واندجت شخصونا المتعبدة في ركب الأرواح المطيفة بحرم النبي ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين على رزقهم يبتغون من فضل الله ، وبقيت قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا ، وآثروا على كل متاع فيها ، جوارِ الرسول الحبيب . وآخرون أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر في المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً في الحرم أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذي وعيتُ من مشاهد التاريخ الإسلامي منذ عام الهجرة ، إلى أن لبي المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر في هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً للمسلمين من شتى أقطار الأرض..

ومرّني في مجلسي عددٌ من النسوة يطفن بالمقصورة الكريمة ، فلم ألق إليهن بالا . حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غير بعيد مني شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعي عن أصواتهن ودعواتهن كما أفرغ لتأملاتي . لكنني ما لبثت أن سمعت صوتَ نشيج مختنق ، رجَّعته جوانب الحرم فكان له صدى لا فِت ، وجِمننا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدرت رأسي أتمس الباكية ، فألفيتها إلى جانبي : امرأة نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تتفض في ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخنق أنفاسها المتلاحقة . .
وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدي إلى جانبها أرنو إليها في رثاء وعطف ، حتى رفعت نحوي وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بي فجأة :

- ادعى لي !

قلت في حرارة وتأثر :

- الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لي حينذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :

- غريبة أنتِ عن الديار ؟

أجابت وهي تشهق :

- وى ! غفر الله لي ، أأتكون غربةً مع جوار النبي ؟ ولكن لي في بلاد بعيدة فلذة كبدي غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبي ، فأفزع إلى ربي لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين ياستي كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

- أرجو ، فما الذي تبغين ؟

أجابت في لهفة :

- تقرئين لي قصة نار إبراهيم ، فإني أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدرت ماتعني ، وتلوت عليها آيات إبراهيم من سورة الأنبياء :

« والله لا أكيدن أصنامكم بعد أن توولوا مدبرين . فجعلهم جُداً إذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم . قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا ياناركوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخْسَرِينَ . ونجيناها ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . »

صدق الله العظيم

هنالك انبسطت أساريرها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهت وهمست
تسألني في خوف وشك :

- وهل ترين أني أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟ فأبيتُ عليها أن تيس من
رَوْح الله ، ثم هممت بالقيام معتذرة بأني من قومي على موعد ، كى نسعى إلى « أحد » ثم
إلى « قُباء »^(١) قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .
فتوسلتُ إلى أن أبقى هنيئة ، ريثما تقص قصتها على :

* * *

نشأتُ في بلاد المغرب الأوسط ، بدويةً حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهى
صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تفتتح للربيع ناضجة الجسم
رطبة العود ، حتى ركبهم الهمُّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ،
ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشارتها ، ويتبعون
مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصفون إلى ما قد يندُّ عنها من هذر الأحلام في غفوة
النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحمواها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيثهم وهم بدو من فقراء
الرعاة . وهكذا استقبلت ربيع العمر في ظلّ رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة
أوضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم ماوى للأنثى في شرائع
البداة الجفافة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن
يُرضيهم منها أى حال :

إن وجمتُ ، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمتُ قيل عاشقة لقيتُ الحبيب !
إن مرضتُ قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحَّت قيل راضية صفا لها الحب !
إن نامتُ قيل حاملة تهفو إلى لقاء طيف المحبوب ، وإن سهرتُ قيل مسهدة جفاها
الرقاد !

إن تجملتُ قيل فاجرة تهباً للقاء ، وإن أهملتُ زينتها قيل ضالة رحل عنها من
تهواه !! !

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبى « المدينة » على يسار القاصد إلى مكة . نزل بها الرسول ﷺ في هجرته
التاريخية ، وبني بها أول مسجد في الإسلام

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بخبال ، فدعوا لها ضاربي الرمل
وقارئي الكف ، كى ينزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه . وما كان سرها
سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وازدهر . .
وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا
الدفوف كى يبرئوها من مس الجن ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة
الربيع وحيويته الدافقة . .

* * *

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .
أوهكذا ظنت وظنوا . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا
فتاتهم من محنة الرصد ، وطاب لهم ولها أن يثدوا ربيعها المستول عن كل ما لقيت ولقوا ،
وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جدوته المتقدة وتذهب بعبيره الفياح !
لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع وليداً جميلاً فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من
جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنا كرهت أن تذهب هذه
الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم
العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرحتها إلى
قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !
ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت
كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر
الحى مكاناً قصياً وانطوت على أحزانها تجترها فى شجن صامت . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة ، وافد غريب جاء من ديار بعيدة يسعى فى طريقه إلى
الحجاز ، وقد كُلت قدماه من طول السرى فنزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه
المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث
ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحينه إلى الروضة الشريفة . .
هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبی الحبيب عليه الصلاة
والسلام .

وأخذتها عيناه في كل ليلة ، وهى تصغى إليه من ركنها المتزوى ، فرق قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحبالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبث بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصددها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك . فكادت تيشس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلب يدها ، وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها تُهَوَّن عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . .
ثم انصرف بها يبيغان مكة المكرمة . ومن ثم إلى المدينة المنورة !

* * *

تبع زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثَّها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ذلك ، كل ما لقيت من عناء السفر ووعناء الطريق ، وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تنهارى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، فدبت القوة من جديد .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى الحرم المبارك ، فُرِدَّت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً . لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعةً من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام فى المدينة المنورة . وكانت تتوول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يُؤدَّن لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تَظِلُّ ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مستولاً عما تعانى من جهد الشوق إلى ولدها :
أولم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويعيدها السلو والنسيان ؟

أولم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار؟! ما بالها لا تكاد عينها تقع على صاحبها حتى يثور بها لاعجُ الحنين إلى ابنها النائي ، فتجد لهذا الحنين مثل لفتح النار ولذع الجمر؟

وكانما وجدت أخيراً مَنْ تحمل عليه إصرماً لقيتُ في حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومَنْ تأخذه بذنب الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

واستشعرت لذلك نوعاً من الرضى ، ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الراقدة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد ، وربيعها الموهود ، وأمومتها المحرومة المعبدة!

وكان الزوج يلقي ثورتها مستخفاً بها ساخراً بأحزانها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها فكانت تهرب من الدار طولَ النهار مستجيبةً بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوَّها ، وتستغرق في صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته ، هذه النار التي ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . .

* * *

وتنفس الصبح وأنا في مجلسي أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتُ صامته خاشعة ، وبدا لي أنها قد انصرفت عني تماماً ، فألقيت عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وثيداً في ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التي تمرح هناك آمنة لا تُراع !

هاجر

« إن الصفاً والمروة من شعائر الله فمن حج البيت
أواضاً فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن
تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم » .
صدق الله العظيم

انطلقت بنا السيارة من « جدة » بسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا
الليل ويلفنا الظلام . وقد أخذتنا شبه غفوة حاملة ونحن نحدق في الجبال الصخرية التي تحف
بجانبي الطريق في شموخ ، وأشعة الغروب تلتقي ظلّة رقيقة من ضوءها الشاحب على القمم
الجرداء ، ثم تنساب في رفق على السفوح العارية التي أرقها قيظ النهار .
وأوشكت السيارة أن تم سبعين كيلومتراً ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم
والتلال المتراكبة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال .. ثم لاحت لنا « مكة » فجأة
من بين الفجاج ، فلم نتالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا في ضراعة وابتهاال :
« ليك اللهم ليك .. »

ورددت البطاح أصداء هتافنا ، فخيّل إلينا أن الوادي قد امتلأ بمشود المسلمين
الأولين ، تندفق من ناحية الشمال لتدخل « مكة » فاتحة مليية ، وعلى رأسها « القصواء »
ناقة الرسول ، تعود إلى البلد الحرام بعد أن تسلت منه خفية إلى دار الهجرة قبل ثمانى
سنين ، ناجية بصاحبها ﷺ ، من كيد طواغيت المشركين ومطاردتهم الشرسة . .

* * *

وظفنا بالكعبة سبعاً ، ثم خرجنا نسعى بين الصفا والمروة حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ
على درج المروة ، تجاه الوادي ، وقد طاب لى حينذاك أن أعتزل الصحب زاهدةً فيما شغلوا
به من حديث .

ولم أكن حتى تلك اللحظة ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه
أمى يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج من القوافل أجيراً أميناً لبعض أثرياء
التجار من قريش . ثم اصطفاه الله رسولاً ، فما مات حتى وطئ بقدميه أصنام الكعبة ،

وشهد بعينه راية الإسلام تخفق على كيل بقعة في أرض العرب ، وسم بأذنيه « بلالاً » يتنادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » ، فيستجيب له بالجزيرة مئاة الألوف ممن دخلوا في دين الله أفواجاً . .

أجل ماكنت حتى تلك اللحظة التي أتممت فيها المسعى ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ المجيد الذي صنعه أمي يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له شيخ مُسن ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتذك حصون الطغاة والجبابة . .

غير أني لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامي داعين مكبرين ، حتى توارت عني مشاهد ذلك التاريخ الإسلامي ، ولم أعد ألمح سوى طيف « هاجر » وهي تهول في هذا الوادي باحثة عن قطرة ماء لتروي غلة طفلها الغالي « إسماعيل » :

خرجت به من خيام أبيه إبراهيم - عليه السلام - طريفة منبوذة ، كل ذنبا أنها رزقت غلاماً ، وسيدتها « سارة » ، امرأة إبراهيم ، عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هي التي سعت إلى إبراهيم أو أغرته بالزواج منها لتبه ولدأ ، وإنما أذنت السيدة « سارة » بذلك في لحظة يأس ، ورضيت أن تشركها جاريتها المصرية في زوجها . لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما أذنت بذلك إلا وهي ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكف الزوج عن ذكر الولد ، ويتد في أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية . لكن التجربة لم تخفق ، وشاء الله أن تحمل « هاجر » فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وخيل إليها أنها صغرت في عيني جاريتها ، فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

- ظلّمي عليك ! أنا دفعتُ جاريتي إليك فلما حملتُ صغرتُ في عيني ! يقضى الربُّ بيني وبينك .

قال إبراهيم :

- هي ذى جاريتك في يدك ، فافعل بها ما يحسن في عينيك .
فلم تكذ سارة تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت في إذلال هاجر إلى أن هربت منها وهامت على وجهها في البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت في حجر إبراهيم ولده إسماعيل .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فإزالت إبراهيم تحضه وتغريه أن يطرد هذه الجارية وابنتها ، وهو يتردد مشفقاً . ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بهاجر منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب في الصحراء وهي تسير من ورائه صامته مستسلمة ، متشبثة بوليدها الرضيع ، لا تكاد تفكر في شيء إلا في نجاتها به . . .

* * *

وأبعد إبراهيم في السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمة القفر ، فوضع هناك هاجر وإسماعيل وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء . ثم انثنى ليعود من حيث جاء . وتلفتت الأم حولها فأفرعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

- أين تمضي وتركنا بهذا الوادي المقفر حيث لا ديار ولا نافع نار ؟

فلم يجب . .

وأعدت سؤالها مرة ، واثنتين وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجب !

ولم يبق لها من بعد ذلك إلا أن تتساءل :

- الله أمرك بهذا ؟ !

وعندئذ أجاب إبراهيم : نعم .

ولم يزد . . .

قالت هاجر : إذن فالله لا يضيعنا . . . (١)

ورجعت إلى موضعها الأول عند أطلال البيت ، على حين مضى هو في طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيبتة نبتة الوادي فاستقبل البيت العتيق بوجهه ودعا ربه في خشوع :

« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » .

واستأنف مسيره راجعاً . . .

* * *

وخيم على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أم عطشى ، وصباح رضيع جائع جف النبع الذي يغذوه ويرويه .

(١) مستخلص من (التوراة) و (تاريخ مكة) للأزرق . أما القرآن الكريم فلا يتعلق بتفصيل القصص ، تركيزاً

على جوهر الموقف ومناطق الاعتبار

لقد نفذ الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفذ ما فى السماء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركته أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . . .

وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عل على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهولت حتى أتت « المروة » فعرّجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . . وظلت هكذا تهول من هنا إلى هناك ، ساعة بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهاكت على الصخور منهوكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها المذبذبة .

وإذ تنأى إليها أنينه ، وغطت رأسها بلفاعها كيلاترى ولا تسمع فقد كان سماع حشرجته وهو يختصر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تخمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين ، وبدا كأن شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الكثيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، ليترع منها الحقيقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثم . . . ألفت نبعاً يفيض ماء ! وأكبت عليه تغرف منه ، حتى إذا ردت إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمته طفلها المشرف على الهلاك .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة بينه وأحفاده . واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع - بئر زمزم - يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبله أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ،

ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ويسعوا مهولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهولة من زمن موغل في القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .
وهذه هي بئر زمزم ، ماتزال في مكانها قريباً من قبر هاجر ، يتزاحم عليها الحجيج ليطفروا من نبعها بجمعة مباركة ، كذلك التي رَدَّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يمتنصر !

* * *

ياله من تاريخ ! ..
إن جهاد أم في سبيل ولیدها ، قد تقبلته السماء عبادةً وقرى ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمم ، سِفراً يتلى في « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة في « القرآن الكريم » . . .
وكان مسعى هاجر وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، عزيزاً على الإسلام ، كما كان عزيزاً على الأجيال من قبله ، فدخل في الشريعة الإسلامية شعيرة من شعائر الله في الحج والعمرة .

وظلت قصتها ملء التاريخ الديني ، على مر الزمان .
وما كانت « هاجر » سوى أمة طريفة مضطهدة ، نُبذت مع ولیدها بالعراء في الفلاة الموحشة ، بوادٍ غير ذي زرع .

لكنها أم !
وكانت تلك الأمم حسبها عبادة وقرباناً ! !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

« إلى التي عجز الرق عن استعباد قلبها ووأد
إنسانيتها ، وإقناعها بأن لاحقاً لها في معاناة
عواطف البشر ، تحيةً ، ورتاءً . . . »

بلغنا في رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين في أقصى الشرق ، وبدأ لي أن أزور
بعض العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من الأعراف والتقاليد .
فصحبتني صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .
وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يُفضى
إلى فناء داخلي ، تُفتح عليه قاعةُ الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .
وألفينا في استقبالنا شابةً مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق
السجاد العجمي . فنهضت لتحتينا ، ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل
ابتسامة نحيلة متعبة .

قالت صاحبتني تقدمها إليّ : امرأة السيد .

ثم التفتت إليها قائلة :

— ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتُك آخر مرة ، عليلة

تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يُشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتني :

— كذا ترينني ياسبت ؟ حمداً لربي ، أنا بخير ما بقيت في هذى الدار .

قالت لها السيدة :

— ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهي تقول في انفعال غاضب :

— ما أعرف لى داراً غير هاذلك المكان ، وليس لى في سواه مأرب ، ولا لى عنه

منصرف ، حتى الموت !

وصمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتني تسأل :

- وزوجك يا آمنة ؟

قالت الشابة وفي نظراتها مزيجٌ من الرعب والاحتقار :

- ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لي به شأن . طلقني منه سيدي ، له الشكر والله

الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل صاحبتني إن آمنة امرأة السيد ؟
فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟
وفيم تشبها به إن لم تكن ربه ؟ وكيف يُطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوجُ إن لم
يكن السيد ؟

ولحظتُ صاحبتني ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

- لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ،
زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوج آمنة من صانع أجير ،
أعجمي غريب . ويبدو أن آمنة لم ترض عن هذا الزواج ، فعادت إلى بيت سيدها ،
وهذه هي تقول إنها لا تبني عنه جِولاً .

رددت آمنة في إصرار :

- هو ما سمعت : لن أتحول عن هدى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجوني مرة كرهاً ،
ولن يخرجوني منها ثانية وفي نفس ! أعرف أني جارية ، أمة . مُستعبدة ، ليس لي أن
أرغمهم على بقائي هنا ، لكنني أعرف أيضاً أني لن أطيق الخروج ، ولن أرغم عليه حياة ،
فليقتلونني إذا شاءوا ، أو . . . !

وبترت حديثها بغتة ، إذ دخلت السيدة ، في تلك اللحظة لتحيي ضيفتها وانكشفت
« آمنة » في مكانها تلتقي على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، بدون أن تبسنت بينت شفة .
ونظرتُ أنا إلى السيدة : عروس في ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ،
تميس في دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين في شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من
« الدانتلا » البيضاء ، وازينت كأنها تتهيأ لجلوة العرس !

وجيء لنا بالشاي والفاكهة فأصبنا منها ما اشتيننا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا

النساء .

وعلمتُ أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط
إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة؟ أجابت في مرح :
 - هيبني أشفقتُ ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من المدينة إلى مكة على ظهور
 الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل ترينها نزهة طيبة
 لعروس لم تبحر « المدينة » قط ؟

فضحكتنا جميعاً إلا آمنة ! قالت وهي تعبت بخيوط لفاعها :
 - أما أنا فما استطعتُ . سألتني سيدي أن أصحبه إلى المدينة يومَ طار إليها ليأتني بالسيدة
 العروس ، فرجوته أن يعفيني من هذه الرحلة ، إذ أني أخاف ركوبَ الجو . . .
 وصمتتُ بعد ذلك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردتُ « آمنة »
 قائلة وهي تنظر إليّ :

- تالله ياسق ما كان بي من خوف ، وإنما ضعفتُ فكرهتُ أن أشهد بعيني جلوة
 العروس .

فسألتها صاحبتني :
 - وأي شيء في ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقدرٌ يجري عليك وعلى مثيلاتك ،
 أفا كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك ؟
 أجابت في بطء :

- أجل توقعتُ ذلك . . . وتوقعتُ أن يلفظني هذا المكان على غير رغبتني وهواي !
 ويالي من حمقاء ! أقول رغبتني وهواي ، وإني لأعلم أن ليس لي ولثيلاقي حق الرغبة
 والهوى ! ! لكنه الضعف ، فاغفرا لي . . .

وقلت وأنا أهدق في عينها :
 - لا حاجة بك يا آمنة إلى الاستغفار ، فما أئمت ولا أذنبت . إني أفهمك يا أختي ،
 كما أفهم نفسي .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :
 - ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطفٌ أنثى وطبيعة بشر؟
 أولم تلدك أمك مخلوقة سويةً من الفصيلة الآدمية التي ننتمي إليها ؟
 قتلها وجهها غبطة ، وامتلت عينها بالدموع ، لكن وجومها عاودها بعد قليل
 فنهدت قائلة :

- لست واحسرتها أعرف أبوي ، غير أني لا أفنأ أمثلني وليدة في حضن أم ! وكلنا

رأيتُ طفلاً يُسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هائناً بين ذراعيها ، هاجت شجوني وقلت
لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم يشُدُّني واقعي فأراني ولا أمّ لي ! نسج الزمان بيني
وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شيء .
وأمسكتُ عن الكلام ريثما دخلت السيدة وأخذتُ مكانها بينما فاستأنفت « آمنة »
حديثها قائلة لي :

- سمعتك ياست تتحدثين عن رغبتك في زيارة أحياء البلدة . لو شئت لأذنت لي في
صحبتك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .
فأدركتُ على الفور أنها تريد أن تنطلق معي خارج الدار ، لتفضي إليّ بهومها .
ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتي وصاحبتي ، وخرجتُ مع آمنة .
وتركتُ لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على
حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كتبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية
المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة غريبة لاهية ، ضلّت طريقها
إلى أمها في زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألقت نفسها
بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلم إلى رجل غريب يمضي بها على راحته
في سفرة عبر الصحراء ، استغرقت نحو أسبوعين قبل أن تلتقي بها في « مدينة الرسول » لتعيش
هناك أعواماً ، وتلتقى الدروس الأولى في مدرسة الرق وسوق العبيد !
ولم تكن الدروس في مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن
تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلمهم أقاموا في البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان
طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولاً ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً في أن تشاركهم
اللعب ، أو يرون فيها غير رفيقة صباً وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع من
بينهم . وتُدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد والقفار . . .
وعبثاً حاولت أن تبقى مع من حسبتهم قومها ، وعبثاً حاول أترابها أن يحملوا أهلهم على
الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل
تمهلت الصبية عند باب الدار تريد أن تملأ عينها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت

الدموع بينها وبين ما تريد . هنالك اندفع فتى من الرفاق يهتف بها ألا تخزن ، فإنه ماض معها إلى حيث يُسار بها !
وأشرقت أساريرها بعد نُجهم ، على حين مضى الصبي يستأذن خالته . في السفر -
وكانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .
ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته في مرافقة الوليدة حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليها درساً في الفارق الرهيب بين السادة والعييد .
وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها الفتاة أن من البشر ما يباع وبشرى ، دون أن يكون له من أمره شيء ، أي شيء !
وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذي لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها في ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذي أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانشئ بيكي لها ، وعليها . . .
وأعفاها ذهولها المبالغ من وطأة الإحساس بالحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها في مثل هذا الإحساس .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت ورائها تلتمس أطلال عالمها الماضي ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كثيبة ، موحشة جرداء . . .
وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المناهة الضالة العمياء !
وتناهى إليها في تلك اللحظة ، صوتٌ حادى القافلة يَعد الإبل الرُّى والراحة بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى . لكن نظرة صارمة من وجه المشتري الغريب ، أمسكت الدموع في مقلتيها .
وتمنت آنذاك لو أنها ناقة في القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدوها في رفق ، ويغني لها في حنان ، ويَعيدُها الراحة والظل والرى . . .
وهنا لم تقو « آمنة » على المضى في الحديث ، فتركها تبكى . حتى إذا أراحها البكاء استأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب في البيداء أياماً وليالي حتى أشرفت على إحدى القرى ، وآن لنا أن نخط الرحال .

وقادني الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمني إلى سيد كهل هناك ، ففارس السيد في وجهي حيناً ، ثم أسلمني بدوره إلى القائمة على شئون الدار .
وبدأت عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذي كان .

بدت لي الدار موحشة خراباً على الرغم من ضجيج النسوة اللواتي كن يملأنها . لأنني افتقدت فيها الصبية والأطفال ، وألفيتني أعيش وسط جمع متناكر من النساء !
كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن ميثاثلات في الزي والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنني ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها في الحرم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمع من العبيد .
وإلى هذه الأمة الكهولة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذي ينتظرني بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفتني بعده أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى من دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !
واستسلمت لحياتي الجديدة ، وقد أرضاني أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدت الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التي أوثرت بها :
كنت إذا شعرت بوعكة ، حملني السيد بين ذراعيه إلى فراشي وسهر على رعايتي ، يستقيني الدواء ، ويملاً غرفتي بأطيب المأكولات .
وكان إذا سافر ، عاد إليّ بادي اللهفة ، وملأ يديه غالي الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل لينسيني أنى أمة ، لولا بقية من المראה كنت أشعر بها في فمي كلما ذكرت اللحظة الرهيبة التي ودعت فيها صباي الخليلي ، ولقنت الدرس الأول عن محنة الرق . .

أجل ، كدت لأنسى . . لكن الزمان لم يسمح لمثلي بذلك .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقني فيها انتظاره ، فتشاغلت
بتصوّر طففته عليّ ، حين يثوب من سفره مثقلاً بشوقه ، وهداياه . . .
وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواجدة إلينا جميعاً ، أمة جديدة أنزلها المنزل الأول الذي كان لي ،
وادخر لها ما كان يؤثرني به من رعاية وتدليل !
وانزويت في الدار مقهورةً أحاول أن أستسلم ، فما كان من حتى أن أثور أو أحتج ،
أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال المحظية الجديدة وشماتة الأريع القديمات ، وأن أصغى إلى
نصح صديقتي الأمة العجوز التي حرصت على أن تميم حسني رحمة بي ، فما يجدي الألم
فيما لا يدلنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره !

أجل حاولت ، وسهرت الليالي في كفاح أليم غايته أن أخنق بشريقي وأعطل
مشاعري ، حتى أفلحت في أن أهيل فوق قلبي وروحي أكواماً من رماد المداراة والتصبر
والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حيناً رأت السيد في غرفتي التي هجرها
نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصرّ على أن أبقى حيث كنت ، كما فعلتُ
زميلات لي من قبل . وأصررتُ على أن يبيعني ليعفيني من العيش في ذياك الجحيم .
قال مهدداً :

— لو ظلمت على عنادك ، بعثك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

— افعل ! افعل بالله . . . إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة في مضارب البدو ، أجمل

في عيني من البقاء في هذه الدار الرحبة ، رافلة في حلال من حريرا
فاشترط لكي يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعه ، ريثما
يختار لي من يشتريني ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشتري ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مرّ بنا في رحلة له إلى نجد ،
وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة أهون من سابقتها ، ولذلك عجبت حين شعرت

بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يدَ سيدى للمرة الأخيرة ، وحيثُ صديقى الأمة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بي مودعاتٍ داعيات .
ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفى التى تلقنتنى صبيةً غريرة ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنين ، شابة قد شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى إلى « نجد » برحلتى الأولى من المدينة ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة ، وأشهد أن سيدى الجديد كان رفيقاً بي طوال الطريق ، لم يضق بوجومى وانقباضى ، بل تركنى أجتزأ حزائى فى هدوء !

حتى حططنا الرحال فى « الأحساء » فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سوى .
واتخذتنى سيدى صاحبةً له ، وزوجة . وربة بيت . ففتتح له قلبى المغلق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فأنيةً فى السيد الحبيب ، وامتد بي هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رُجلى أن يقنع بأمةٍ عقيم ، وزينوا له أن يأتى بأخرى قد تُثبت البذرة التى عجز كيانى المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بغروس من الحرائر ، حملت له البذرة المشتهة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دارٍ قريية ، زوجةً لصانع أجير .

وحاولتُ هذه المرة أيضاً أن أستسلم لِقَدْرِى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبهاً بالدار التى أطلتني سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأب والأخ والزوجَ والحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .
لكن الأيام مرّت والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق ، واشمئزاً ومقتاً .
هربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غلب الصبرُ ونفذ الاحتمال ، فأبيتُ على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يُخضعنى بالقوة ، عدوتُ هاربةً فى جوف الليل ، ولدت بدارى الأولى ضارعةً إلى السيدة

أن تدعني أعيش لها أمةً خادمة منبوذة ، أوفلتأمر السيدَ بانتزاع روحي من جسدي إذا شاءتُ ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .
 واستجابوا لي ، فكان الطلاق والخلاص . وتُركتُ حيثُ أريد ، مكتفيةً بأن أسمع صوت سيدي ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .
 وذاك حسبي من دنياي . .

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :
 - ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .
 فلم تدعني أكمل العبارة ، بل قاطعتني في مرارة :
 - وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أي مكان لي على هذه الأرض إذا لفظتني الدارُ التي كانت لي يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعي بحياتي كلها ، وقلبي مصفدٌ بأغلال رقه وهواه ؟
 ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أُكبتُ على يدي قبلها وهي تهمس :
 - شكراً ياستي ، ألف شكر اكنت كريمة إذ رأيت فينا معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق عواطفها وإقناعها بأن لاحق لها في الحس أو التألم ، أو الحب ، أو البغض .
 وغابت « آمنة » عن عيني ، فلم أرها حتى همت بمغادرة الدار ، وإذ ذلك لحمتها نخطو نحونا شاحبة متداعيةً ، ثم تقف بباب العربة لتقول :
 - في أمان الله . . .

أصداء من الجزيرة

مِن بَعِيد

أكتب هذا وما تزال ملء مسمعى أصداً آتية من بعيد ، لسمر أدبي ممتع ، ملأ إحدى أمسياتنا الحافلة في شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بجلدنا ونحن نتهاً للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى مشرقها . في رحلة ضئيلة الزاد ؛ لولا ضيافة جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطويت لنا الأبعاد واستطعنا أن نتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج
هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقاً علينا أن نلم بمكانٍ لعب في تاريخنا الديني والسياسي والأدبي دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التي كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس » وفي ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم في الأدب العربي مكان أسمى مكان . ومن وراء مرتفع الصمّان^(١) الصخرى الذي يتوسط بينها وبين الدهناء فيعزلها عن نجد ، تسلفت جموع « القرامطة »^(٢) في القرن الثالث الهجري ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار مارد ، يُلقون الرعب في القلوب ويعيثون في الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين في القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجْر^(٣) . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنابي

(١) الصبان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٥ / ٣٨٣ .

(٢) القرامطة : جماعة متمردة ، عاثت في الشرق الإسلامي فساداً في القرن الثالث الهجري وودخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، ومقر عصابة القرامطة ، التي أرادت أن تجعل من (هجر) المركز الديني للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبي الفدا ٢ / ٩٠ ، ومعجم ياقوت ٨ / ٤٤٦) .

القرمطي^(١) يتسلق أسوار البصرة في نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عدته بضع عشرات من الألوف ! .
أجل ، كان حقاً علينا ونحن في الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركن عتراً لا يقاتل بعدها أهل القطيف قتال خيل تنفع !
وقول الآخر :

نصحت لعبد القيس يوم «قطيفاً» فما خير نصيح قيل لم يُتقبل ؟
فقد كان في أهل القطيف فارسٌ حاة إذا ما الحرب ألت بكل كل

* * *

سارت بنا السيارات إليها في الطريق الصحراوي المعبد من ميناء الدمام ونحن نزنو في صمت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمسُ الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة ، وألقت عليها غلالة رقيقة متموجة . ولاحت لنا « القطيف » من بعيد ، واحة ناضرة على جافة الصحراء ، وجنة خضراء على طرف القفر المجدب ، ومرحاً خصباً عامراً شمالي الربيع الخالي . وقد تعلقت بها أبصارنا ، حين بدأت السيارات تتعثر في دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها العُدران فياضةً بمياه العيون والآبار .
وتهادى إلينا نسيم المساء رخيلاً عليلاً معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وبزغت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين السعف واستلقت في وهنٍ وتراخٍ على صفحة الغدير المتألق ، وفوق العشب الندى ، غير مكترثة لصراخ أبواق السيارات ، ولا عابثةً بنباح الكلاب في آثار القطعان .
وكذلك استغرقتنا نحن في خمول هنيء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .
وأبي الكرام أن يكتفوا منا بحفلة الاستقبال في دار « السيد حمود : أمير القطيف » أو جولة عابرة في المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أُعيد لنا في بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .
وكانت أمسية لا تنسى !

(١) أبو طاهر القرمطي : سليمان بن الحسن أبي سعيد ، زعيم القرامطة ، مات بالجدري في هجرة سنة ٣٣٢ هـ .
راجع (تاريخ أبي الفدا ١٩٠/٢) .

لم يبق في القطيف من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقي إلينا كلمة تحية وعتاب :
 أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبله أنظار الشرق العربي ، ومهوى عقول أبنائه ،
 وكعبة الرواد والقاصدين من طلبة العلم وراغبي الثقافة .
 وأما العتاب فلأدباء مصر الذين نسوا أن في شرق جزيرة العرب واحدة اسمها القطيف ،
 شاركت في صنع تاريخنا الإسلامي وتركت في تراثنا الأدبي أثرها الباقي الذي لا يزول .
 إن « دارين »^(١) ماتزال هناك ، ترجع صدى أغاني « النابغة »^(٢) الجعدي «
 و « الفرزدق »^(٣) وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عرف الحبيبة أذكى من
 مسك دارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبتسم للضاربين في
 الصحراء ، وتعددهم الظل والتمر والماء ، كما كانت في قديم الزمان يوم ضرب العرب بها
 المثل :

« كحامل التمر إلى هجر »

وهناك ، ماتزال آثار من الكعبية تروى قصة ذلك الحلم الأحمق الذي راود « أبا طاهر
 القرمطي » وزين له أن يجعل من « هجر » وارثة لمكة ، فوافى البلد الحرام إبان موسم الحج
 من سنة ٣١٧ هـ ، ودخله في تسعمائة من شيعته ، فقتل أمير الكعبة ، وفتك بألوف من
 الحجيج في المسجد وفي فجاج مكة ، وقلع باب الكعبة ، وانتزع الحجر الأسود ثم اعتلى
 سطح البيت وهو يصيح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأنيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها ، زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير من سبي من نساء
 وغلان . وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد في موكبه الحافل يحمل الحجر الأسود إلى « هجر » فبقى
 بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ وهم
 يقولون :

« رددناه بأمر من أخذناه بأمره ! »

(١) دارين : فرصة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد نفى الشعراء بمسكها . راجع (معجم باقوت
 ٥٣٧/٢ ومعجم ما استعجم للبكري ١/٣١٥) .
 (٢) النابغة الجعدي : أبو ليلى بن عبد الله - شاعر جاهلي مقدم ، أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام وأنشده
 شعراً ، راجع (الإصابة ، وطبقات الشعراء لابن سلام والأغاني ١/٥ ط دار الكتب) .
 (٣) الفرزدق : مام بن غالب بن صعصعة أحد أمراء الشعر الثلاثة في العصر الأموي ، وأبرعهم في الفخر ،
 انظر (الأغاني ٩/٣٢٤ ط دار الكتب) .

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفظة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى والأدب العربى ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كل عام ، وإن منهم من يتتدب للعمل أو التدريس فى البحرين واليمن والكويت ، فهلا ألم بالقطيف من كل أولئك زائر ؟

* * *

وهى ، على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع نهضتها العلمية والأدبية ، إنها فى معزها النائى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما قد يجمله المصريون أنفسهم ، لا أكاد أستثنى منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين .
كم تأملت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن مدارسنا الفكرية ومعاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟ كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟ كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يُعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا العربى :

هذى بلادى وهى ماضٍ عامر	مجداً ، وآتٍ - بالمشيئة - أعمار
ألقى عصاه على فسيح ضفافها	وعلى الجزائر ، عالمٌ متحضر
وأذلت التيارات تحت شراعها	فلها عليه تحكّم وتأمر
وترى السفائن بالتوابل والحلى	والعطر من بلدٍ لآخر تُحمَلُ
شهدت موانى الهند خفق قلوبها	فكأنها فوق المياه الأنسر
ولها على وادى الفرات ودجلة	فضل المعلم وهو فضلٌ يؤثر

* * *

وأنت « ربيعة » وهى غرة يعرب	وأذُبتها يوم الكفاح وأصبر
وأعزها جارا وأكثرها قرى	إذ يحلُ البلد الخصبُ ويُفقر
فراحت بها الوطنَ الخصيبة أرضه	للماء فيه تدفقٌ وتفجر
والنخل وارقة الظلال كأنها	جيش كثيف بالخليج مُسكر
تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا	فتمر كالحلم اللذيذ وتحظر
والبحر يُهديها اللآلئ زينة	وتجارة فيها الغنى يتوفر
وكصفحة المرأة جو مشرق	وكلوحة الفنان ريف مزهر

ورأت بها لغةً العروبة بيئةً
فإذا الضفافُ نشائدٌ مسحورة
الملمهون المبدعون تسابقوا
شعراءُ «عبد القيس» تهزج بالهوى
فيها جنى «ابن العبد»^(١) حلّو شبابه
وخيالُ «خولة»^(٢) يستثير غرامه
والجعفر الخطي فنُّ خالد
شعريةً توحى ، وجواً يسحر
وكأنما في كلِّ حلقٍ مزهر
فيها بمدرجة الخلود وشمروا
فيجبها من «بكر» رهطُ أشعر
راح وريحانٌ ، ووجهٌ أقر
فيظل في أطلالها يتحسر
وروائع غنى بهن السمر

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر في أمسينتنا ببستان الأخ «السيد عبد الله إخوان» في القطيف . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقاً على أن أنقل إلى قومي بعض أصدقاء ذلك المجلس الأدبي ، ليعلموا أن على ساحل الخليج في أقصى الشرق من جزيرة العرب ، علماء مجتهدين وشعراء ملهمين ، يتطلعون إلى مصر ويحتفون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتنا في العلم والفن ، « ويعتزون - كما قال الأخ السيد حسن بن علي أبو السعود - بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويكثرون لأبناء الكنانة كلَّ تقدير ومودة ، ويرون في الثقافة المصرية الموردَ العذبَ النмир » .

ويالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فما كادوا يروننا حتى هتفوا مضيفنا الكرم : « ليت هذه الزيارة التي طالما رنونا إليها ، تكون فاتحةً تعارف وهمة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمس حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح ، نحن بني الضاد ، كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب «محمد سعيد الشيخ الحنيزي» :

إن بيننا وبين الصفوة الأمان من أدباء مصر ومفكرها ، تياراً متصللاً في الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا ببداء وبحار :

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلي المشهور

(٢) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول ، في مستهل معلقته :

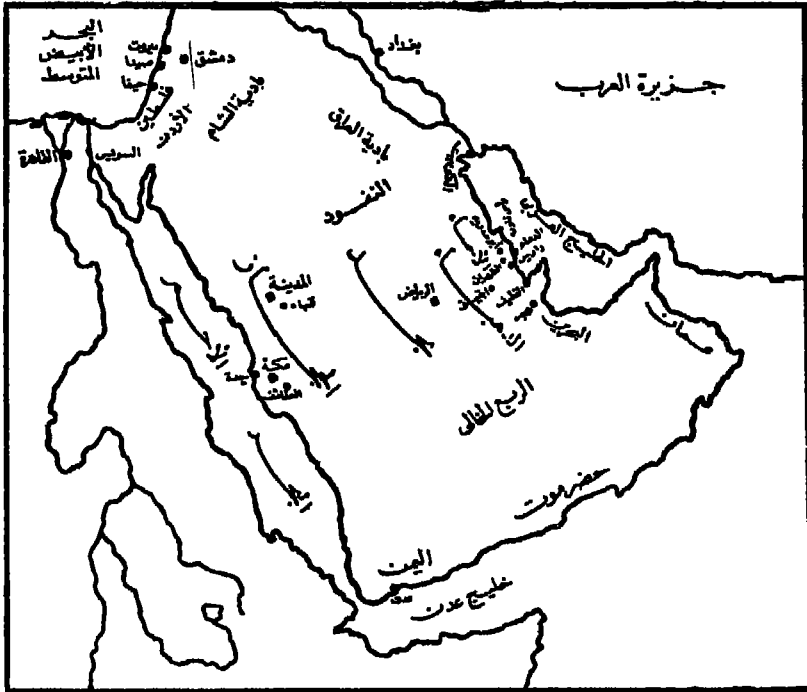
لخولة أطلاط سرقة تُهد
تلوح كنافي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحى على مطبهم
يقولون لا تهلك أسي وتجلد

إن القطيفَ ومصر شعبٌ واحد
ففي نرى هذى الصفوفَ توحدت
وقال الشاعر « محمد سعيد الجشي » :

هذى القطيف شيوخها وشبابها
فلتُخبروا مصرَ العزيزةَ أننا
هذى ربوعُ العربِ مهدٌ واحدٌ
وشعوبُها أممٌ موحدّةٌ الهوى
لييكم أيها الإخوان الكرام ! هانذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم
هناك ، فهل ترى يبلغ صوفي مسمع الأدياء والدارسين من بنى وطني ؟ !
أرجو ، وآمل ..
وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً ..

من بنت الشاطي

مصر الجديدة : مايو ١٩٥١.



(٢)

لقاء مع التاريخ
١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

•

- لبيك اللهم لبيك
- في دار الهجرة
- عوِّدٌ على بدء

* * *

- من وحيِّ المنتقى
- من ذُرِّا عرفات إلى سفح المكبر
- أغنية للعيد
- رسالة العيد

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

على غير موعد كان هذا اللقاء مع التاريخ .
 كنتُ إلى شهر ذى القعدة من عامنا الحالى - ١٣٩٢ هـ - فى المغرب الأقصى مشغولة
 بدراساتى القرآنية فى جامعة القرويين ، أرى فيها الجهاد والعبادة .
 وقومنا هناك مشغولون بمراسم الوداع الخمسة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة ، فى
 حفلات سيطرت على ديار المغرب ، وملاّت الأفق بموشحات وأناشيد أرهفت شوق
 القاعدين ، وأنا منهم .
 وأرقتى الحنين إلى الحرمين ، من حيث بدا أن لا مكان لى على الطائرات المحجوزة
 كلها ، إلى آخر يوم يدرك موسم الحج .
 وقد دنا الموعد ، والأمل يبدو بعيداً . .
 ثم أذن الله تعالى فهياً لى الأسباب من حيث لا أتوقع . وفى أيام معدودات كانت
 إجراءات سفرى قد تمت بفضل همة السفير السعودى فى الرباط « السيد فخرى شيخ
 الأرض » وصحبتنى مروته حتى ركبت الطائرة من الدار البيضاء ، مع آخر فوج من
 الحجاج المغاربة .
 ومعى ما تيسر من الدراهم ، وزادُ قليل من الخبز القديد والإدام الجاف ، قدّرت أنه
 يكفينى مع التقشف ، فى رحلة نسك وعبادة .

* * *

بلغنا مطار جدة فى الصبح الباكر من يوم الجمعة ، الرابع من ذى الحجة ، لأجد
 نفسى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » من حيث لم أحتسب أنه ما يزال
 يذكرنى ، وآخر عهدنا باللقاء مجلس سمر فى أمسية قاهرية بعيدة ، طربنا فيها على نغم
 قصيدته الشجية (سمراء) .
 وأثار لقاءنا الجديد شجون ذكريات لمجالس حافلة جمعتنا قبل عشرين سنة فى جدة
 وفى مصر ، كنا فيها نستقبل الحياة والدنيا بنجيمٍ وبالخالى .
 وفيما كنا فى المساء بقصر جدة ، نسترجع الذكريات وتتناشد الأشعار ونتشاكى أشجاننا

وهوم أمتنا وتندبر عبرة أيامنا وليالينا ، استأذن زائر من رجال المراسم الملكية ، تحدث إلى سمو الأمير « عبد الله » فالتفت إليّ ليبلغني متلطفاً ، أنني انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الملك الفيصل ، حفظه الله .

وخطر على بالي وأنا مأخوذة بهذه الرعاية الكريمة المضاعفة ، ما جئت به معي من زاد الخبز القديد والإدام الجاف ، حملته من أقصى المغرب إلى جدة ، عبر قارات ثلاث . وبقي عليّ أن أتدبر حيلة للتصرف في توزيعه بوسيلة أو بأخرى . . .

وشهدتُ الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج ، وسعتهم الأرض المباركة حيث يقضون مناسك حجهم معاً ، ويتحركون في وقت واحد من المطاف إلى مقام إبراهيم فالمسعى ، ويبيتون جميعاً ليلة الوقفة في منى ، ويبكرون معاً في الصباح إلى عرفة ، ومنها يفيضون بعد غروب الشمس إلى مزدلفة ، ومعاً يعودون إلى منى فتزويهم أيام التشريق على رحبٍ وسعة !

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق ببضعة ألوف من السائحين ، إن طرءوا عليها في وقت واحد . . . ويُعييها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال . .

* * *

في كل خطوة وكل موقف ومشهد ، وجدتُني مع التاريخ في أم القرى والبيت العتيق :
مدنية العصر قد غزت الوادي الأجرد غير ذى الزرع ، وأسراب الطائرات والسيارات قد حلت محلّ النوق والحجال ،

والكهرباء أبطلت وقود الحطب ،
والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق المسعى ، مكانَ الحصى والرمال .
والمباني العصرية تقوم حيث كانت الدور البدوية البسيطة .
ولا شيء من هذا كله ، يمس روحَ المكان . .
تغير الشكل والمظهر ، وبقى للمكان جوهرُ شخصيته التاريخية ، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنا أصالته وعراقته .

والكعبة تستبدل بكسوتها كلَّ عام أخرى جديدة ،
وتبقى شخصيتها بمنأى عن طوارئ التغيير : مثابة الحج ومهوى الأفتدة ، وبيت الله الحرام ، أقدم بيتٍ عبّده فيه سبحانه وتعالى على الأرض ، وأحب أرض الله إلى الله ورسوله وأُمَّته .

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسَّمْت واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضي عبر حقب ودهور ، في هذه البقاع المباركة التي تحتفظ بجوهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمنأ ، فلسنا نراها اليوم إلا كما رأها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبينا ، وطافوا مثلنا طفتنا ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالمشعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونفروا إلى المزدلفة كما نفرنا ، ونحروا في مِنى كما نحرننا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالي التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتتبدل ، فيطمس جديدها معالم القديم ، ويُدكُّ عمراتها المحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضع عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرته ، وأعوّزه فيها ترجان ودليل . .

* * *

كم عرفت الدنيا بيوتاً غير هذا البيت العتيق !

كم شيدت من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شائعة وصروح مبردة شاهقة ! وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تنضاءل دونه أبهى البيوت وأفخم القصور وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الديني ، دهور وأحقاب موهَّلة في أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضارين في مفاوز القلاة ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون في حياه شعائر عبادتهم التي ارتدت في ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلال جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .

لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرم العتيق عندما ضاقت بهما امرأته السيدة سارة وأصرت على ألا يضمها وجاريتها الولود سقف بيت واحد .

في جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه :
« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة ،

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .
واستجاب الله لدعائه ، ونظر إلى الأم المنبوذة قد أجهدها السعى بين الصفا والمروة بحثاً
عن قطرة ماء أو أثر حياة في الوادي القفر الماحل .
حوم طائر على المكان ونبس في الأرض فانبجس الماء من نبع زمزم . ونجا إسماعيل ،
وابنت الحياة في القفر : مرّت قافلة من جرهم قرب المكان ، فلمحت الطير محمّماً عليه ،
واتجهت نحوه لعلها أن الطير لا يحوم على غير ماء . وألقت رحالها حول النبع المبارك .
وبورك مسعى الأم بين الصفا والمروة ، فأخذ موضعه بين شعائر الله في الحج .
فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة ، مثلما سعت هاجر التي دخلت التاريخ
الديني بهوم أمومتها ، وأعطت « عيد الأم » عندنا قيمته ومعناه .
وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ معه مبلغ السعى ، فأفضى إليه برؤياه : أن يذبحه قرباناً
لربّ هذا البيت العتيق .

وامثل الفتى لأبيه في أمر ربه صابراً لم يتردد . . .
ثم تجلت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين فكانت آية الفداء :
« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا
أَبَتِ افْعَلْ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ
يَا إِبْرَاهِيمَ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ
بِذَبْحٍ عَظِيمٍ » .
وتخلد المشهد شعيرة من شعائر الدين ، فكلها هلّ عيد الأضحى نحرن الضحية في منى ،
أوحيتها نكون ؛ ذكرى وعبرة ، وإحياء لمشهد البذل والفداء وطاعة وتقوى .
والعبرة في الشعائر بالتقوى :

« لئن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .
« ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .
وبلغ الذبيح المفتدى أشده ، فأصهر إلى جرهم وتعرب فيها لتعمر مكة بذريته العرب
العدنانية المتعربة .

وتلقى العهد مع أبيه إبراهيم :
« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى
إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

واستجابا لأمر الله تعالى واتجها إليه بالضراعة والابتهال والدعاء :
 « وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنْسِكَنَا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .
 فتلك هي صلاتنا في مقام إبراهيم بعد الطواف بالكعبة في حجٍّ أو عمرة .
 ومن ذلك الماضي الموهل في القِدَم ، كان الأذان في الناس بالحج إلى بيت الله المحرم المطهر :

« وإذ يوأنا لإبراهيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكُ فِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّبًا رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .

* * *

وتأصلت حرمة أم القرى لموضع هذا البيت منها ، فما عرف التاريخ سواها عاصمة دينية للعرب في الجاهلية .

وقد غيرت عليها عصور بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ارتد فيها العرب إلى الوثنية ، دون أن تفقد مكة حرمتها فيهم ، أو ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق .
 وغلب عليهم اليقين أن مكة (لا تُفَرُّ فيها ظلماً ولا بغياً . ولا يبغي فيها أحدٌ على أحدٍ إلا أخرجته ، ولا يُريدُها ملكٌ يستحلَّ حرمتها إلا هلك مكانه) .

والمرويات عن تاريخها مع الجبابرة المفسدين ، شاهدة على رسوخ ذلك اليقين^(١) :
 بغي فيها جرهم ، فأخرجهم بنو إسماعيل منها أذلة صاغرين ، يبكيهم شاعرهم راثياً :
 كأن لم يكن بين الحَجَّونِ إلى الصِّفا أنيس ولم يسمر بمكة سامرٌ
 وهم « تبع الحميري » بالبيت العتيق يريد إخراجه ، فيروى أنه رمى بداء تمخض منه رأسه قيحاً وصديداً ، وتبيست أطرافه وأعياء الطبَّ علاجه . حتى نُصحَ بأن يرجع عما أراد بالبيت العتيق .

وحملوه فطاف به معظماً ، وكسا الكعبة وأطعم الناس ، فنجأ . .

(١) اقرأها بتفصيل في الجزء الأول من : السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ومعها : تاريخ الطبري ، وتاريخ مكة للأزرق .

وهلك من بعده صاحبُ الفيل « أبرهة الحبشي » : كان قد بنى كنيسة فخمة في صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلب إليها (الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس . ثم كعب إلى مولاه نجاشي الحبشة : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولست منتبهاً حتى أصرف إليها حجَّ العرب) .
لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلط على أصحاب الفيل وباءً مهلكاً ، رمتهم بجراثيمه طير أباييل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذلك بوباء الجدرى ، فيما نقل « ابن هشام » في (السيرة النبوية) . وبقى البيت العتيق في أم القرى مثابة للناس وأمناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً . وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث في تفسير لوثني أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيما نقل ابن هشام :
« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحدثا عند الكعبة ، فسخها الله حجرين لاعتدائهما على حُرمة الكعبة » .

وفي ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .
ويقدم التاريخ تفسيراً دينياً لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب ومزنته في عقيدتهم وقلوبهم ، ففيما نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :
« أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا في البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة » .
ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربَّ هذا البيت لتقربهم إليه زلفى : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

* * *

وكان لمكة في الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم أحد النساء ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .

النسيء كان وظيفة من الوظائف الدينية العريقة التي تعتر بها القبائل ، فيقول « عمير بن قيس » يفخر بالنسأة من قومه بنى مالك بن كنانة :
 ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحِلِّ نجعلها حراما ؟
 كما افتخر « أوس بن تميم السعدى » بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرحُ الناس ما حَجَّوا مُعَرَّفَهُمْ حتى يقال : أجزوا آلَ صَفْوانا
 مجدُّ بناه لنا قِدَمًا أوائلنا وأورثوه طوالَ الدهر أخرانا
 وفي قريش ، كان شرف وظائف سقاية الحجيج ورفادتهم في الموسم ، وراثة من جدِّهم « قصي بن كعب بن لؤي » المضرى العدناني .

ويذكرون من خبر السقاية ، أنها لما آلت إلى « عبد المطلب بن هاشم » - جد المصطفى عليه الصلاة والسلام - شقَّ عليه ما يلقى الحجيج من شحِّ الماء . فذكر بئر زمزم التي أنقذت جده إسماعيل وجذبت إلى مكة قوافل الرعاة . وكان الناس إلى زمن عبد المطلب ، يتناقلون خبر جرهم لما طمرت بئر زمزم ، عند خروجها من مكة . فتعلق أمل عبد المطلب بالعنور على النبع المبارك المطمور . ومع طول التفكير صار هذا الأمل مشغله ليله ونهاره . حتى دلته رؤيا ملهمة على موضع البئر ، فغدا إليه بمعوله ، ومعه ابنته الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره . فلما همَّ بالحفر تصدت له قريش تتحداه أن يحفر هناك . وقد استضعفته أن لم يكن له غير ولد واحد . لكنه لم يبال غضب قريش ورفضها ، وتابع الحفر حتى بدت له الحجارة التي طويت زمزم تحتها . وعاد الماء فتدفق من النبع المبارك ، يسقى الحجيج . .

يومها ، نذر عبد المطلب لئن وُلد له عشرة أبناء وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة . وتوفى بنوه عشرة ، فتلث عبد المطلب حتى بلغ أصغرهم « عبد الله » رشده ، ثم دعا بنيه إلى الوفاء لله بندره ، فلبُّوا طائعين ، وما يدرون أيهم الذبيح حين خرج بهم أبوهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قداً باسمه . وضرب صاحب القداح عليها ، فخرج على قدح عبد الله ، وقد كان أبوه يتمنى في نفسه ، أن لو أخطأه السهم . . .

وتكررت قصة الفداء : همَّ الشيخ بذيح ولده ، فإِنْ مَسَّت الشفرة منحره حتى قامت قائمة قريش ، وقد هالها أن يغدو عملُ عبد المطلب تقليداً يُتبع ويورث ، أو كما قالت يومها :

« والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذرَ فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » .
وأجمعوا أمرهم على أن يستشيروا فيه عرّافة لهم بخبير . قالت ، لما عرّفت أن الدية فيهم عشر من الإبل :

- ارجعوا إلى بلدكم فاضربوا القداح على ولدكم هذا وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت عليه فزيدوا عشراً ثم عشراً حتى تخرج القداح على الإبل . فانحروها عنه وقربوها ، فقد رضى ربكم .

وفعلوا ، فإزال القداح يخرج على عبد الله وهم يزيدون الإبل عشراً فعشراً ، حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها . ولم يطمئن عبد المطلب حتى كرروا ضرب القداح ثلاث مرات ، وهى تخرج على الإبل المائة . فنحروها وثركت لا يُصدّ عنها إنسان ولا وحش .

ونجا عبد الله ، واسترجعت مكة ذكرى الذبيح المفتدى الأول : إسماعيل ، جد قريش والعرب العدنانية .

ومن الكعبة خرج عبد المطلب بولده عبد الله إلى بيت سيد بنى زهرة : وهب بن عبد مناف الزهرى ، فخطب ابنته « آمنة » عروساً لعبد الله ، « وهى يومئذ أفضل فتاة فى قريش نسباً وموضعاً »

* * *

فى عام الفيل ، وُلد اليتيم الهاشمى الذى مات أبوه عبد الله فى طريق عودته من رحلة الشام ودُفن فى ثرى يثرب ، ولم يقبل الموتُ فيه هذه المرة أى فداء :
وفى السادسة من عمره ، خرجت به أمه آمنة من مكة إلى يثرب ، لزيارة قبر أبيه عبد الله هناك . وغالها الموت فى طريق الإياب ، فدفنوها بالأبواء ، وتابع محمد سيره إلى مكة ، وحيداً محزوناً مضاعفَ اليتيم .

وفى صباه ، شهد حِلْفَ الفضول فى دار ابن جدعان بمكة ، وفيه تعاقدت أحياء قريش على ألا تُتْرَف فى مكة ظلماً ، ولا يُظلم فيها أحد إلا كانت على ظالمه حتى ترد مظلمته .
فى الخامسة والثلاثين من عمره ، كان حادث تجديد بنيان الكعبة الذى حسم فيه محمد خصومة معقدة بين قبائل قريش ، أنذرتُ بحرب :

كانت الكعبة قد مستها شرارة من جمره إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرُها وأوهتُ

بنيانها . ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة الأيدي لا تدرى ماذا تفعل ، تهباً من المساس بقايا البيت العتيق . وشاع أن البحر رمى بسفينة جنحت إلى ساحل جدة ، فأسرع إليها رجال من قريش ثم عادوا بأخشاب السفينة ، ويرجل من قبط مصر ، نجار بناء . وتم الاستعداد لتجديد بنيان الكعبة وقريش ما تزال تهب أن تمس بقاياها ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومي » فأخذ المِعْوَل وقال : « اللهم لم نزع ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » .

ثم أهوى بالمعول على البنيان المتصدع ، والقوم ينظرون إليه مشفقين عليه وعلى أنفسهم . فلما لم يصبه سوء ، تلبثوا ليلتهم مترددين يترصدون عاقبة ما كان . فلما أصبح « الوليد » غادياً على الحرم لم يمسه شر ، هدموا معه . وتنافست القبائل في جمع الحجارة للبناء ، حتى إذا تم ، اختصموا فيما بينهم أيهم يستأثر بشرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه . وقد كان أقدم أثر باق من البيت العتيق .

وكنثوا على الخلاف بضع ليل ، ونذر الحرب تزداد . حتى تراضوا على أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب البيت الحرام . وتعلقت أبصارهم بالبواب في انتظار الحكم ، فكان أول من دخل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

هتفوا جميعاً : هذا الأمين ، رضينا بحكمه .
وحدثوه بالأمر ، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه فيه ، وقال للقوم من حوله :
« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعه جميعاً » .

فعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه « الأمين » بيده ، ودعّم بناءه .
وانجابت الظلال عن أفق أم القرى .
هكذا على طول المدى ، كان لمكة حرمتها وللبيت العتيق مكانه وجلاله .

* * *

حتى بزغ الفجر الصادق من ليلة القدر المباركة وخرج المصطفى « محمد بن عبد الله » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو في الأمين كلمة الوحي الأولى : اقرأ . .
ونسخ نور الفجر ليل الجاهلية ، فتطهرت ساحة البيت العتيق من الأصنام ، وانطفأت نار الجوسية ، وترنحت صروح الجبابرة تريد أن تنقض .

ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأظلم لوائه شعوب الدنيا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أمة واحدة : قبلتها هذا البيت العتيق .

* * *

وتمضى الأعوام والقرون .
وتتعاقب الأجيال والعصور ،
والتاريخ مشدود إلى حشود الحجيج في الموسم الدوري من السنة القمرية ،
يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين ، خاشعين قانتين . قد تجردوا من كل زينة
وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورُتب ومناصب ،
وتخففوا من أثقال المادية التي تثد روح الإنسان ، وتختق فيه هيامه الفطري إلى الحق والخير
والجمال .

وأمحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر ، وفوارق الطبقات والدرجات ،
واستوى الملوك والرعايا ،
واستوى الأمراء والدهماء ،
واستوى الأغنياء والفقراء ،
واستوى الرؤساء والأتباع ،
فليسوا جميعاً سوى عباد الله .

وتشهد الدنيا في هذا الحرم آية المساواة في عقيدة لا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى :
أكرمهم عند الله أتقاهم .

يمحق بها الدين في ختام رسالاته ، كل ما يثود إنسان العصر من مآسى التفرقة
العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي ، ولعنة الوثنية المادية . .

* * *

بصوت واحد ، في حرم البيت العتيق غير بعيد من غار حراء ، يعلو هتاف ألف ألف
وخمسين ألف مسلم ، شهدوا هذا الموسم :

ليبك اللهم لبيك

لا شريك لك لبيك

ويسترجع بنا التاريخ مشهد المسلمين الأولين وهم يدخلون هذا المسجد الحرام يوم

١٠٩

الفتح ، في السنة الثامنة للهجرة ، حافين بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذ يصلى بهم في الحرم المطهر من رجس الأوثان ،

وتتجاوب الآفاق ، عبر الزمان والمكان ، بدعائه عليه الصلاة والسلام يوم الفتح :

« الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده ،

نصر عبده ، وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده »

فهو من ذلك اليوم المشهود دعاء عيدنا ، في الفطر والأضحى ، يصدع جبروت الطاغوت ، ويمحق أعداء الإنسان الذين يريدون ليطفثوا في ضميره نور الإيمان « والله مُّتمّ نوره ولوّ كره الكافرون » .

مِنِّي :

١٢ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

في دار الهجرة

«إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» .

صدق الله العظيم

مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة .
 صلينا الظهر في المسجد الحرام ، وحملتنا الطائرة في العصر من جدة ، فأدركنا صلاة
 المغرب مع الجماعة في الحرم النبوي . وبتنا ليلتنا في جوار الحبيب المصطفى ، يسعى بين أيدينا
 أهل الحرم مرحبين مكرمين .

هذه الرحلة المريحة التي لم تستغرق ما بين عصر ومغرب ، على متن طائرة ملكية فوق
 بساط ريح رُخاء ، أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة نبينا المصطفى عليه الصلاة
 والسلام ، من دار مبعثه في أم القرى ، إلى دار هجرته في يثرب .

أبصارنا تحديق في الطريق الصحراوي الوعر ، تلتمس من عكس موضع « غار ثور »
 بأسفل مكة ، حيث أوى المهاجر ﷺ مع صاحبه الصديق ، ريثما تبدأ المطاردة الشرسة
 من طواغيت قريش .

خرجنا إلى الغار من خوخة في ظهر بيت الصديق ، بعد أن أشرف المصطفى على مهد
 مولده ودار مبعثه فاستوعبها بنظرة حزينة وقال يودعها :

« والله إنك لأحبُّ أرض الله إلى الله ، وإنك لأحبُّ أرض الله إلى . ولولا أن أهلك
 أخرجوني منك ، ما خرجت . »

وفي غار ثور كان مأواهما ثلاث ليال ، والمطاردون يَعدُّونَ في أثرهما ، ويبلغون الغار
 فيهمون باقتحامه ، لولا أن صدَّهم عنه نسيجُ عنكبوت على فتحته ، وحامتان وحشيتان
 وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا .

فكان جوابه ، ﷺ : [لا تحزن إن الله معنا] .

وفي هدأة المساء من الليلة الثالثة لقماتها في الغار ، سريا مع دليل ثقة أخذ بها طريق
 الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

الطريق الوعر يتراءى لنا من نوافذ الطائرة ، بكل غاظه ومفاوزه والتاريخ معنا ،
 يتتبع خطوات المهاجر حتى يثرب ، واصلا إليها من قباء . .

وفي أهل المدينة ، آنسنا ملامح أجدادهم الأنصار من أوس وخزرج ، يوم احتشدوا
 هناك لاستقبال نبيهم المهاجر ، عليه الصلاة والسلام .

وفي أصواتهم إذ يرحبون بضيوف الحمى من حجاج الموسم ، رجحُ هتاف الأنصار يوم
الوصول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجبَّ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

* * *

المسجد النبوي يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وعظمته ، وسعة رحابه وفخامة مبناه .
الأجيال من أمة محمد ، ﷺ ، قد أغدقت عليه من حبا ما لم يحظ بمثله مثوى بشر .
وبدلت له من فنها ومالها ، في أريحية وسخاء . وجلبت له من ديار الإسلام ، في المشرق
والمغرب ، نادر الرخام وثمين الخشب وبهي الثريات ، وفرشت رحابه بفاخر البسط
والسجاجيد ، نسجت أيدى مهرة الصناعات من الشعب الإيراني المسلم .
وتبقى روح المكان في أنقى أصالتها وعراقتها ، كأن لم تمسه يدٌ بالتغيير منذ شهد التاريخ
بناء هذا المسجد في الأيام الأولى بعد الهجرة .

دخل المصطفى المدينة من قباء يوم الجمعة ، وسط حشد من المهاجرين والأنصار ،
فأدركته صلاتها في حى بنى عوف بن سالم ، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة . ثم أرخى
العنان لتناقه القصواء وهي تشق الزحام لا يدري أحد أين يكون مقام المصطفى في دار
هجرته ، وكل بيوتها مفتوحة له ترحب به .

وبدا الموقف صعباً : كلما مرَّ بحى من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف
النزل فيهم ، وهو يتحرج من إثارة حى على أهر فيردُ معتذراً : « خلوا سبيلَ ناقتي » .
إلى أين ؟ إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وثيداً تشق الزحام حتى برّكت به عند مربد هناك . فحطَّ المهاجر رحله
وقام يصلى .

على ساحة هذا المرید ، بُني المسجد النبوي : ثاني الحرمين ، ومزار المسلمين على مر الزمان .
وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد : اللين والجريد والليف ،
وبعض الحجارة والخشب ، والمصطفى معهم ، يشارك ويوجّه ويعين . حتى تم البناء ، لم
يستغرق أكثر من أيام معدودات . ومن حول المسجد ، بُنيت تسع حجرات تفتح على
ساحته ، لتكون دار النبي المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطا متواضعا ، بعضه من حجارة مرصوفة ، وبعضه من جريد يُمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .
 وشُدَّتْ خشبات بالليف ، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للنبيين عليه السلام .
 وغير بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، في الحيرة
 وغسان واليمن ، وفي مصر والحبشة وفارس ، تعلو سامقة شامخة . ساطعة بأضواء البذخ
 والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذي لم يلبث سنا نوره
 أن كسف ضوءه كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصرو فرعون ، وإمبراطورونجاشى وملك .
 وفي الأحياء اليهودية الناشئة في يثرب ، وفي مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دورٌ مشيدة
 وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبي الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد
 الفقر . ويلتقط أهلها ما يتلو الأميون من آيات القرآن في الحث على الإنفاق في سبيل الله ،
 براً وتراحماً وتكافلاً . فتذيع القالة اليهودية الفاحشة : « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » :
 وتمضى الأعوام والقرون ، توسع من رحاب المسجد وتسخو في العناية به والبذل له ،
 وهو هو ، بروح عراقته وجوهر شخصيته .

* * *

ليتنا الأولى بدار الضيافة في جوار الحرم النبوى ، كانت مع التاريخ إذ يروى حديث
 هذه المدينة التى فُتِحَتْ بالقرآن من قبل الهجرة ، ففتحت قلبها وبيوتها لهجرة الإسلام . وقد
 كانت إلى ماضٍ قريب ، تبدو بعيدة عن مسرح الأحداث ، وإن لم تصرف سمعها عن
 الصراع الدائر في مكة بين الوثنية والإسلام ، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذناً بوشكٍ تحولٍ
 في متجّه الأحداث .

قبل الهجرة بستين ، أهل موسم الحج وخرج المصطفى كدأبه في كل موسم ، يعرض
 الإسلام على وفود القبائل العربية ، وقومته أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا
 قليلاً ممن آمن به .

وبدت الجولة في أولها ، مدعاةً إلى يأسٍ وحنوط :

سعى إلى « منى » حيث يجتمع الحاج ، فوقف على الحشود هناك داعياً ومبشراً ونذيراً ،
 فتصدى له عمه أبو لهب ، يكذبه ويصد الناس عنه .

وانتظر ﷺ حتى انصرفت القبائل من منى إلى منازلها في مكة ، فأتى كندة فدعاهم إلى

١

الإسلام فأبوا عليه .

وكذلك ردّه بنو كلب ، لم يقبلوا دعوته .
ثم أتى بنى حنيفة في منازلهم ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه رداً منهم .
وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فساوموه بالبيعة ، على أن يكون لهم الأمر
من بعده !

ولما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . ردّ المساومون :
« أفنهدف نُحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك » .
ومن حيث بدت الأبواب كلها موصدة هناك في وجه الإسلام ، ظهرت يثربُ على
الأفق الشمالى البعيد ، تجذب إليها متعجه الأحداث من دائرته المقتلة في أم القرى :
لقي المصطفى في (العقبة) نقرأ من اليربيين الخزرج ، دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ،
وقالوا :

« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله
بك . فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدين ،
فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعزُّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدتين إلى بلادهم ، ومعهم صحابى جليل من صميم
قريش . هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موفداً من قبلى المصطفى عليه الصلاة
والسلام ، ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين .

ونزل مصعب على أنصارى من الخزرجيين أصحاب بيعة العقبة الأولى : « أسعد
ابن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال أبى محمد ، عبد الله بن عبد المطلب .
فحدث أن خرج مصعب يوماً مع ابن زرارة ، إلى حى بنى عبد الأشهل ، واجتمع
إليها رجال من الأنصار ، فسمع بمقدمها « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ
سيدا قومها ، وكلاهما على دين آبائه .

ونخرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته . فحرض أسيداً
ابن حضير على أن يقوم فيردّه وصاحبه عن الحى .

التقط ابن حضير حريته ، ثم أقبل إليها فقال متوعداً :
« ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلنا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .
قال مصعب بن عمير : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفِّ

عك ما تكره !

فركز « أسيد » حربته وجلس متكئاً عليها ، يسمع ما يقول مصعب عن الإسلام ، وما يتلو من القرآن .

ثم قال وقد زايله تقبُّضه وتجهمه : ما أحسن هذا الكلام ؟ وأسلم . وانطلق عائداً إلى حيث ترك « سعد بن معاذ » في جمع من قومه ، فعرف سعد أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به .

وسأله عما فعل بالرجلين ، مصعب وأسعد ، فقال : كلمتها فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، وإني لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم .
فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى الرجلين يتجهان إليه في طمأنينة ، وعرف أن أسيد بن حضير ، إنما أراد له أن يسمع منها .
وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :
- يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من قرابة ، ما رمت هذا مني . أتغشانا في ديارنا بما نكره ؟

فترك أسعد الكلمة لمصعب الذي قال :
« أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما نكره ؟ » .

قال ابن معاذ : أنصفت وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن .
وقبل أن يلفظ سعد بن معاذ بكلمة ، عرف القوم الإسلام في وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً « فما أمسى في حى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة » .

* * *

في الموسم التالي كانت بيعة العقبة الكبرى التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج ، وامرأتان أم عمارة نسيية بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى .
وعادوا إلى المدينة والإسلام معهم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم في اتجاه الأحداث .

فبعدها بسنة واحدة ، كانت الهجرة التاريخية التي اختارها ثانی الخلفاء الراشدين « عمر ابن الخطاب » بداية للتاريخ الإسلامی .
تقديراً لجلال الحدث الذي كان منطلق تحول حاسم وخطير في تاريخ الإسلام .

* * *

ونطوف بمعالم المدينة وضواحيها ، والتاريخ معنا دليل وشاهد :
هذه « قباء » منزل المهاجر عند وصوله من مكة ، وهذا مسجدها ، أول مسجد بنى في الإسلام .

وهذه بدر ، تعيد ذكرى « يوم الفرقان » في السنة الثانية للهجرة حيث كانت الجولة الأولى من الصدام المسلح بين الإسلام وطاغوت الوثنية . وفيها تحددت موازين القوى ، لا بين هؤلاء وهؤلاء فحسب ، بل في كل صراع بين حق وباطل .
وذهبت بدر عبرة ومثلاً :

القتال « يوم الفرقان » لم يكن بين قلة وكثرة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر في حماية الجاه الموروث ويتقى الموت ، وقلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا جهاداً في سبيل الله وغضباً لما انتهك من حرماته ، لا يبالي على أى جنب كان في الله مصرعه .

« قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ التَّامَّةِ فَبَتُّنَّ تَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ » .

* * *

وهذا جبل أحد ، ما يزال حيث هو ، يروى حديث يومه المشهود ، ويعطى درسه وعبرته :

فيه خرجت قريش بجدها وحديدها وأحايشها ومن والها من بنى كنانة وأهل تهامة ، ثاراً لقتلاها في بدر ، ورحصاً لعار الهزيمة . . .

ونزل الجيش الزاحف من مكة على شفير الوادي مقابل المدينة ، وخرج له المصطفى بجنده المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان . وحين بدا النصر للمؤمنين لا شك فيه . وولت قريش الأدبار عن معسكرها وتركت لواءها مطروحاً تحت مواطئ أقدام المتصرين ، تسرع رماة المسلمين ، فمالوا إلى معسكر قريش التي ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لخليل المشركين التي

لاحت لها الفرصة ، فكرت على المسلمين من حيث انكشفوا . .
وتغير وجه المعركة ، ليتعلم المسلمون الدرس . .

* * *

وهنا وهناك ، حيثما اتجهنا وأنى أقنا ، كانت أطيايف الكنائس الأولى من حزب الله ،
تحف بنا وتجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة ومشاهد الجهاد ، وتحبى في نفوسنا الأمل
الضائع ، وتذكرنا بأجداد ماضيها الأغر الذى شهدنا التاريخ فيه نملى عليه فيكتب ونوجهه
فيسير . .

* * *

وحان أوان الرحيل ، فودعنا الحبيب فى مثواه ، وكأننا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد
أن أبلغ رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين والحق فى الآفاق ، وأن يحملوا
لواء القرآن إلى الأقطار من مشرق ومغرب . .
وكانت آيته ، ﷺ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت
عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها لكيلا يُفتن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ،
كما فتن من قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً :
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَنَنْتَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .
ودفنوه هناك ، حيث مات فى حجرة زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر .
دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى .
وعاش الرسول ﷺ ، خاتم النبيين الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فى ليلة
القدر المباركة من شهر رمضان المبارك .
« سلامٌ هى حتى مطلع الفجر »

المدينة المنورة :

٢٠ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

عود على بدء

« إن هذه أمتكم أمة واحدة »

رحلتي هذه المرة . كانت للحج وزيارة الحبيب المصطفى ، وقد عقدت العزم على أن أقضيها في النسك والعبادة والتأمل ، لا أخلطها بشيء من شواغل الدنيا إلا ما لا حيلة لي فيه من هموم راسخة في أعماق النفس .

من ثم ، لم يكن لرحلتي أي برنامج خارج منطقة الحرمين . بل إنني عزمت كذلك على الاعتذار عما عسى أن أتلقاه من دعوات خاصة ، أو اجتماع بالملاء الأدباء والكتاب ، راجية أن أتوه عنهم في ركب الحجاج المليون ، حيث لا يكاد أحدٌ يتميز من أحد ، ونحن في زى الإحرام ومواكب العبادة .

وفاتني أن الملتقى الإسلامي الكبير في الموسم ، يحقق تعارفنا من حيث ندرى ولا ندرى . فتفتح قلبي للقاء إخوة وأصدقاء من أقطار المشرق والمغرب ، بعد أن شط بنا النوى فتباعدت الديار ونأى المزار . وآخرين منهم جمعتنا على البعد زمالة الفكر والوجدان ، وإن لم يسبق لنا تعارف ولقاء .

ثم كانت آية الموسم الجامع ، أن يلتقي بعضنا بعضاً مع اختلاف الألسنة والأجناس ، فتتعارف بالقلوب وإن لم تتعارف بالأسماء . وتتصافح وجوهنا وإن لم تتصافح الأيدي . وتشد بعضنا إلى بعض رابطة العقيدة ، نعمة الله على هذه الأمة ، تتجلى في ملتقاها عند القبلة الواحدة في مهد النبوة ومنزل الوحي .

ومن حيث رجوت أن أتقى مخالطة الناس . صرت أسعى إليهم تلقائياً مستجيبة إلى جاذبية الملتقى ، ومدركة ما غاب عني من حكمة الحج في تعارفنا وترسيخ شعورنا بوحدة الانتماء إلى أمة القرآن . .

* * *

ولما دنا الرحيل ، رحبت بدعوة لزيارة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لأشهد المدى الذي وصل إليه جهاده في مقاومة التخلف والجهل والجمود ، وأرى ماذا آتى غرسه من طيب الثمرات .

وكنت أتابع من بعيد ، ككاتب الشباب وهي تخرج من أعماق البادية فتقتحم الأسوار إلى آفاق العلم والمعرفة لكنني ما توقعت أن يشهد جيلي ، خروج بنات الجزيرة من متاهة الجهل المفروضة عليهن باسم الدين ، إلى رحاب الجامعة . ولم أكن نسيت السدود الصماء التي رأيتها مضروبة على (حريم الجزيرة) تتحدى أي محاولة لإخراجهن إلى دور العلم . وقد سألت في رحلتي الأولى : فيم هذا التعطيل لعقل المرأة المسلمة والوآد لوعياها ، والعلم في ديننا فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

فكان الرد : يخشى المشايخ أن يكون تعليمها ذريعة فساد خلقي .
ولما لم أفهم كيف يمكن أن يكون العلم مفسدة ، قيل لي فيما قيل ؛ إن البنت إذا تعلمت القراءة والكتابة ، لم يؤمن أن تتسلل إليها ومنها رسائل غرامية ، فتساق إلى الغواية والإغواء !

يومها لم أملك إلا أن أقول : لقد قرأنا وكتبنا ، وإن إحدانا تملك من أمرها ، ما لا يملكه الحراس الأشداء . عفتها كانت وستظل أبداً ملك يديها ، لا تُفرض عليها من خارج . وهي في الإسلام مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحمل وحدها أمانة إنسانيتها وتبعة كسبها ومسئولية عملها . وقد ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين .

وكان أخشى ما أخشاه ، وأنا أرى بنات الجزيرة معطلات العقل موءودات الوعي ، أن يُظن بالإسلام أنه يريد للمرأة أن تُمسخ آدميتها فتهبط إلى دنوية الدواب العجماء ، وإني لأعلم أنه الذي حرر عقولنا وضائرنا ، وأن الله سبحانه ، من علينا بأن بعث فينا نبينا عليه الصلاة والسلام يعلمنا الكتاب والحكمة . فإذا أفتى مشايخ نجد بأن تعليم البنت مفسدة ينبغي أن تُتقى سداً للذرائع ، والدنيا تعرف لهؤلاء المشايخ فقههم للإسلام وجهادهم في مقاومة البدع وتنقية العقيدة من الشوائب ، فإن الناس يُعذرون إذا ظنوا بالإسلام الظنون ، وحسبوا أنه يفرض على المرأة أن تعيش ذمية صماء بكساء عمياء البصر والبصيرة .

ومعاذ الله أن نكون هكذا ، ونحن نتلو من آياته المحكمات .

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . .

وتركتُ الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . .
 المدينة العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت (للضوء ، والسينما والراديو)
 بدخول أجنحة الحرم .

ولم تسمح بدخول كتاب !
 ومضى جيل واحد فحسب ، فُتحت فيه أبواب العلم الموصدة في وجوه البنات ،
 فاجتزن المراحل إلى التعليم العالى . وهؤلاء هن في (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) ،
 يوشكن أن يتمن مرحلة الليسانس ، ويحققن ما لم يجرؤ عهد العاهل الراحل على الخوض
 فيه ، فتركه أمانة لعهد ابنه الملك فيصل ، الذى جعل لتعليم البنات في المملكة ، رياضة
 خاصة تعوض ما فاتت ، وتصل ما انقطع من ماضى هذه الأمة ، يوم كانت المرأة تشارك
 في صنع تاريخها مشاركة ذات بال ، وتفرض وجودها الفعال المؤثر ، على حياة قومها في
 الجاهلية والإسلام .

وفي أنحاء الجزيرة ، باديتها والحضر ، تقوم مدارس البنات منارات هدى ، وتستقبل
 في كل عام مع أفواج الطالبات ، فوجاً من معاهد المعلمات يحملن أمانة القيادة الصعبة على
 الدرب الخطر ما بين متاهة الجهل ورحاب المعرفة . فأذكر بهن تلميذات مدرسة النبوة من
 الصحابيات والتابعيات ، وأجيالا بعدهن من المسلمات ، بلغن مرتبة المشيخة في علوم
 العربية والإسلام ، وإلهن كانت رحلة طلاب العلم في عصور عز المسلمين . . .
 وسلام على من اتبع الهدى . . .

جدة :

١٥ من دى الحجة ١٣٩٢ هـ .

من وحيِ الملتقى

«وأذانٌ من اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ»

من ذُرّاً عرفات ، إلى سفح المكبر

في طريقى إلى المسجد الحرام ، ذكرت المسجد الأقصى في محنته ، وقد بعدُ عهده بوفود الحجاج ، وخطاً عليه الشيطان يريد ليُجعل منه معبداً للطاغوت . فتجسمت المفارقة بين المسجدين ، ضُربَ بينهما بسورٍ باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبَله العذابُ .
وفي مسمى نداء عاهل الجزيرة « خادِم الحرمين » يؤذَنُ في وفود الموسم بالجهاد ويذكر المسلمين بعار إسرائيل ، ويستنفزهم لمعركة الشرف والبقاء ،
فهل يبلغ الأذان من المسجد الحرام مسمعاً من أمةٍ تولى وجهها شطره حيث تكون ؟

* * *

من فجاج الأرض حجّوا عابدين
وعلى عرفات قاموا خاشعين
قد تناسوا ما على أرض البشر
من هموم وعداوات وشر
وتماحت بينهم كل الفروق
في حمى الكعبة والبيت العتيق
وانحنت هامُ الرعايا والملوك
للذى نعتو له كل الجباه
وإليه ، في سماوات علاه
رفعوا النجوى دعاءً وصلاه
« رينا لبيك إن الحمد لك »

* * *

(١)

خشع الكون لرأى المؤمنين
 مذأهلوا في خشوع مُحْرَمِينَ
 عيدُهُم حج وسعى وفداء
 وأمانى عمرهم هذا اللقاء
 لِيلْبُوا ضارعين قانتين
 وحَدِّكَ اللهم ياخالق نعبدُ
 وعلى نورِكَ ياربُّ محمد
 كلُّ مسعانا لدُنْيا أولدينُ

(٢)

وعلى سفح المكبر
 عند أولى القبلتين ،
 ثالث الأقداس صنو الحرمين
 في جوار المهدي من أرض السلام
 نشر الشيطان طاغوت الظلام
 ومضى يعوى ويزأر . . .

* * *

وتوارى القدس في جوف الدجى
 بائس الأطلال محجوب السنى
 يسأل الأنقاض : « أين الموعدُ ؟
 يُبْطِلُ الفجر من ذاك الضباب
 أين مسرانا وأين المعبدُ ؟ »
 ثم لارداً ، سوى رجوع الصدى
 وعواء الوحش من مرعى الذئاب

* * *

وعلى المهدي المسهّد
غصنُ زيتونِ يتيّم
وبقايا من هشيم
وصدى صوت بعيد يتردد
من دُرا عرفات إلى سفح المكبر:
« وحدهك اللهم نعبد .. »
وعلى مسرى محمد ،
بجوار المهدي من أرض السلام
ينشر الشيطان طاغوت الظلام ،
ويعريد ..

أغنية للعيد

«إلى أمتى ، فى لياليها الساهرة» .

(١)

عيدنا كان على طول المدى
يملاً الأفق بهاءً وسنى
كلما هلّ احتشدنا للقائه
ونهلنا الأنسَ من فيض عطائه
وشدّونا ، والدنى تصغى لنا :
« ربنا ليك إن الحمد لك »

* * *

الملايينُ على مرّ الزمن
من حجاز وعراق ويمَن
من ضفاف النيل حتى الأطلس
من رُبا الشام وبيت المقدس
كم رأها العيد فى يوم منى
تلتقى روحاً وقلباً ومنى
بهتاف العيد يعلو فى الفضاء
ربنا ليك يانور السماء

(٢)

عيدنا اليوم وجوم وغضب
يرفض الصبر ويمجفوه الطرب
جرحنا يتزف من جرح الحيمى
فيرد الشهد مرّاً علقها

عُصْبَةُ السَّفَاحِينَ أَعْدَاءَ الْبَشَرِ
دَنَسَتْ أَرْضَ الرِّسَالَاتِ الْكُبْرَى
شَوَّهَتْ وَجْهَ الْحَيَاةِ
مَسَخَتْ كُلَّ الْقِيَمِ
وَاسْتَبَاحَتْ حَرَمَةَ الْإِنْسَانِ
فِي قُدْسِ الْحَرَمِ

* * *

عِيدُنَا نَارُ أَلُوفِ الشَّهَدَاءِ
وَمَلَايِينِ الضَّحَايَا الْأَبْرِيَاءِ
وَمَآسَى اللَّاجِئِينَ الْغُرَبَاءِ
وَبَطُولَاتِ الْجُنُودِ الشَّرَفَاءِ
وَهَتَافِ بَدْعَاءِ الْمَصْطَفَى
يَوْمَ عِيدِ النَّصْرِ فِي أُمِّ الْقُرَى :
رَبَّنَا لِبَيْكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ .

* * *

وَهُوَ ذِكْرِي مِنْ مَضَى
مِنْ أَحْبَابِنَا ،
وَحَدِيثِ الْغَدِّ عَنَا ،
لَبْنِينَا بَعْدَنَا
لَنْ يَقُولُوا إِنَّا كُنَّا هُنَا
قَدْ طَوَّنَا أَوْ نَسِينَا مَا بِنَا
لَنْ يَقُولُوا إِنَّا نَمْنَا عَلَى ضَمِيمِ بِنَا ،
تَتَسَلَّى بِحِكَايَا ، مِنْ هُنَا أَوْ مِنْ هُنَا
وَفِكَاهَاتِ أَلْفْنَا مَضَعَهَا
نَبْعُدُ الْهَمَّ بِهَا عَنِ الْبَالِنَا
لَنْ يَقُولُوا إِنَّا فِي أَعْيَادِنَا

قد غفونا لحظة عن مأساتنا
وكأننا لا نعي أبعادها ،
وكأننا لا نرى آمادها

* * *

عيدنا ثارُ ألوف الشهداء
وملايين الضحايا الأبرياء
ومآسى اللاجئين الغرباء
ويطولات الجنود الشرفاء
وهتاف بدعاء المصطفى
يوم عيد النصر في أم القرى :
ربنا لبيك إن الحمد لك

رسالة العيد

من جنود الجبهة ، إلى حجاج الموسم

في طواف الوداع ، صبحَ يوم الرحيل ، بدأت أحس ثقل المهموم التي تخففت منها منذ
حللتُ بالحمى الآمن . وذكرتُ كتائب المرابطين من شباب الأمة ، على خطوط وقف
القتال ، يقضون عيدهم ، كما قضوا أعياداً قبله ، في انتظار معركة الشرف والوجود
والمصير .

فكأنى سمعتهم ، في رؤياي ، يُفضون إلينا بنجوى أرواحهم الظامئة إلى الفداء :

* * *

أهلنا الحجاج من شرق ومغرب
ياضيوف الله في أم القرى ،
وضيوف المصطفى في روض يثرب ،
سَلِّمَ اللهُ عليكم ،
وهنيئاً عيدكم ،
في حمى البيت الحرام .

* * *

أهلنا . نحن أيضاً كم وددنا .
أنا كنا هناك ،
محرمين ، طائفين عابدين
نجتلى نورَ الحرم ،
نرتوى من نبع زمزم
ثم نسعى زائرين ،
مرهقى الشوق إلى مثنوى الحبيب
صلوات الله عليه والسلام

* * *

أهلنا ،
هذه الرحلة كانت ،
في الصبا ملء رؤانا
قبل أن نبليغ تكليف العقيدة
قبل أن ندرك مغزاها فريضه
في صبا ، كم شجانا كل موسم
موكب الحجاج من أهلي وجيره
ومراسيم الوداع ،
وحشود الضارعين ،
يسألون الركب في يوم الرحيل :
اذكرونا في منى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
واذكرونا في الحرم
واحملوا منا السلام
للحبيب المصطفى خير الأنام

* * *

وبقينا في انتظار ،
كلما قلنا متى نذهب صبحه ؟
قيل : صبراً ، أنتم الآن صغار
وسياتي دوركم ، حقق الله مناكم .

* * *

أهلنا ،
في صبانا كم خرجنا ،
من قرانا والبنادر
عندما تأتي البشائر .
للقاء العائدين ،
بالدفوف والطبول

والمشاعل والمجامر .
وملأنا الجب شذواً
بأغاريد الفرح ،
وتحيات الوصول .
وسهرنا الليل نصغى ،
بالقلوب والعقول ،
لحديث الحاج عن أنس القبول ،
والمشاهد والمواقف ،
والمناسك والشعائر
وازدحمنا حوله نبغى القرى ،
من هدايا وكنوز وذخائر :
لمحة من نور مكة ،
جرعة من ماء زمزم
نفخة من عطر طيبة
تمررة من نخل يثرب
ونقول الله أكبر ،
ياهناه ، حقق الله مُناه !
والحبيب قد دعاه ،
فهي ننمو ونكبر؟

* * *

رحلة كانت لنا ،
حلم الصبا وعد الشباب ،
قبل مأساة الهزيمة
وكرينا ، فمرناها عقيدته
عبأتنا للجهاد ديناً وعباده
حشدتنا ها هنا خمس سنين

في انتظار المعركة
وأمانينا فداء وقاتل وشهاده

* * *

فاذكرونا أهلنا ،
نحن جند الله جيل المعركة
اذكرونا في ميني ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
بلغوا عنى الحبيب ،
أننا نرعى حماه ،
وتؤدى فرضنا ،
وعلى وعد اللقاء ،
• في رحاب الخلد مثوى الشهداء
قد نذرنا هدينا ،
عندما يأتي الأوان ،
يوم عيد نحرننا ،
وسلاماً أهلنا حجاج مكة
ياضيوف الله في البيت الحرام
وضيوف المصطفى خير الأنام

فهل قد بلغت الرسالة ؟
أرجو وآمل . .

عرفات :

٩ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

الضهرست

الصفحة	
٥	دعاء
٧	إهداء
	(١)
١١	رحلة إلى جزيرة العرب ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م
١٧	ليلُ الجزيرة ، وآية البيان
٢٧	الفجر الصادق ، وآية الفرقان
٣٧	وراء الأسوار
٤٥	المعركة الكبرى
٥١	وجهاً لوجه ، في قلب الصحراء
٥٧	ثورة في الصحراء
٦١	صور من الجزيرة
٦٣	المغتربات
٦٧	جارة النبي
٧٣	هاجر
٧٩	آمنة
٨٩	أصدقاء من الجزيرة
٩١	من بعيد

الصفحة

(٢)

٩٧

لقاء مع التاريخ
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

٩٩

لييك اللهم لييك

١١١

في دار الهجرة

١٢١

عوداً على بدء

١٢٥

من وحى الملتقى

١٢٧

من ذُرا عرفات ، إلى سفح المكبر

١٣١

أغنية للعيد

١٣٥

من جنود الجبهة إلى حجاج الموسم

١٣٩

الفهرست

دار المعارف

تقدم من مؤلفات الدكتورة بنت الشاطي

في الدراسات القرآنية والإسلامية :

التفسير البياني للقرآن الكريم (في جزأين)

مقال في الإنسان : دراسة قرآنية

الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق

القرآن والتفسير العصري

مع المصطفى ، في عصر المبعث

نساء النبي عليه الصلاة والسلام

وفي الدراسات الأدبية :

رسالة الغفران : نص محقق (طبعة الذخائر)

الغفران : دراسة نقدية

قيم جديدة للأدب العربي ، القديم والمعاصر ١ ، ٢

لغتنا والحياة

تراثنا ، بين ماضٍ وحاضر

الخنساء

أرض المعجزات

هذا الكتاب تحدثنا فيه الدكتورة بنت الشاطي عن جولة واسعة المدى في تلك الأرض الحبيبة إلى كل قلب ، الجديرة بكل إعجاب ، لأنها أرض المعجزات ، التي قدّر لها منذ أربعة عشر قرناً أن تغير بالإسلام تاريخ العالم ، وتقرر مصائر دول وشعوب وحضارات وديانات .

وهذه الأرض ذات المنابع الروحية المقدسة تشارك اليوم في دنيا المادة كما تشارك في دنيا الروح ، وتدفع سيل الزيت دافقاً غزيراً ، فتسهم بذلك في تقرير مصير العالم . فهي أرض دين ودنيا جديرة بأن نجول في جنباتها ونقرأ ما كتب الرحالون عنها ، وما شاهده الجوالون في نواحيها المختلفة .